محاضرات في البحث عن الرواية

أبو عبدو البغل

خيري الذهبي

الشروق

محاضرات في البحث عن الرواية

خيري الذهبي

الإهداء

إلى فارس حامل العبء المشعل... كاتباً وصديقاً.....

وإلى سهير ... الصحفية المرجع، وبكري التي احتضنتني زمن الأزمة.

وإلى عبير الروح ثانية أطفالي، وإلى أم الجميع سميرة

بين الأمبوبايا والنـهايات....

كان السؤال الملح دائماً هو: لماذا كانت الرواية الأولى التي تحوز الشروط الفنية المعقولة في مصر هي رواية زينب وهي رواية ريفية، عن علاقات ريفية، وفي بيئة ريفية، وشخصيات ريفية معاصرة أو تكاد، ولماذا كانت الرواية الأولى التي تحوز الشروط الفنية الأولى في سورية رواية تاريخية تدور أحداثها قبل أربعة عشر قرناً، رواية تتحدث عن مكان تاريخي متخيل، وشخصيات تاريخية متخيلة، وبيئة ومكان تاريخية متخيلين. وأعني رواية سيد قريش لمعروف

الأرناؤوط... وأنا هنا لن أدخل في الجدليات الأكاديمية التي تجعل فرانسيس مراش السوري سابقاً، أو زينب فواز المصرية سابقة، فهذا لا يهمني فما وضعته من شروط لهذه الدراسة هو الرواية التي تحوز الشروط الفنية المعقولة لإدخالها ضمن جنس الرواية الفنية.

في رواية "سيد قريش" لمعروف الأرناؤوط سنلاحظ أن الأرناؤوط قد قفز في التاريخ إلى الوراء أربعة عشر قرناً ليقدم لنا سورية تحت الاحتلال البيزنطي والخارجة من الاحتلال الفارسي من بضع عشرة سنة، سورية المائجة بالقبائل العربية من غسان وكلب وكونفدرالية قضاعة والتي حازت أو تكاد استقلالها الذاتي عن بيزنطة، ولكن درس تدمر وزنوبيا، ومحاولاتهما الاستقلال لصنع دولة شامية مستقلة وإخفاق المحاولة وانتهاءها بتدمير كل شيء، وكانت تجربة الأنباط في سالع ومدائن صالح، ومحاولات حكامها صنع إمبراطورية شامية تحل محل الإمبراطوريتين الغازيتين الفارسية المشرقية، والرومانية الغربية، وإخفاق التجربة ثانية وانتهائها بالدمار والشتات وضياع الاستقلال النسبي.

كانت الشام تطمح إلى استقلال ودولة خارجتين عن ربقة أحد العدوين المحيطين فارس وبيزنطة، ولكنها "الشام" كانت ما تزال تذكر العقوبة القاسية التي نالتها التجربتان السابقتان، وها هم الغساسنة يتحفظون ولا يندفعون، أما الشعب فكان مندفعاً إلى أقصى الحدود.

في رواية "سيد قريش" سنرى سطيح وهو شخصية شبه تاريخية مخلوق من لحم دون عظم، فكان يطوى طيَّ الثياب، ولكنه كما يقدمه

الأرناؤوط كان عرّافاً لا يشق له غبار، وكان الأقدمون يعتقدون أن الأشوه يملك قدرات روحية وتنبؤية خارقة دائماً.

كان سطيح يخبر، ويتنبأ، ويعد بقرب ظهور المنقذ. إنه نبي عظيم وارث لكل نبوات الأرض. نبي ستخرجه الجزيرة العربية.

ومن جانب آخر: هناك بحيرا الراهب الذي كان يصحو وينام ويستقبل القادمين من الجزيرة العربية سائلاً ومتسائلاً إن كان قد ظهر. ((من؟))... النبي المنتظر، والأمل المحرر، والاستقلال المرغوب، وصانع الدولة الجديدة.

تتقدم الرواية وهي رواية كبيرة في جزئها الأول، فما بالك في الجزأين التاليين، وهي تتحدث عن مظالم البيزنطيين، وعن ترف الغسانيين، وعن قلق الشاميين، و... الحجازيين ممثلين بـ أمية بن أبي الصلت الشاعر والحالم بالنبوة، فبها يسود قومه.

ونعود إلى السؤال: معروف الأرناؤوط كتب روايته هذه في أواخر عشرينيات القرن العشرين، وكانت سورية قد خرجت من ثورتها ضد الاحتلال الفرنسي وقد ترسخ الاحتلال. الأرناؤوط درس إبان الفترة العثمانية فهو قد ولد في العام 1829وتعلم وتخرج ضمن النظام التعليمي العثماني، وشهد الحرب العالمية الأولى، وشهد الاحتلال الفرنسي، وحلم كأبناء جيله جميعاً بالاستقلال، فكان رده كمثقف هو استنهاضه التاريخ يحارب به الحاضر. استنهاضه مرحلة تشبه إلى حد كبير عشرينيات القرن الماضي. احتلال فارسي طُرِدَ، واحتلال بيزنطي مرفوض تماماً كالعثماني والفرنسي فرأى أن ما أنقذ البلاد من

الاحتلاليْن نبوة الحجاز. هل نذكر الشريف حسين وابنه الطريد من سورية... فيصل.

المهم.. الأرناؤوط صنع معادلاً موضوعياً لماضٍ انتهى بالنصر، ورأى أن الأمل الآن هو في تكرار التجربة. هل يذكرنا هذا بروايات نجيب محفوظ الأولى، "رادوبيس" و"كفاح طيبة"؟ مصر المحتلة بريطانياً، كمصر المحتلة هكسوسياً، والأمل في منقذ قادم من الجنوب، من العمق، من النقطة الأقل تلوثاً بالاحتلال وضياعاً أمام حذائه..

في رواية الأرناؤوط سنرى استعانة المؤلف بالإشارات والإحالات إلى كتب التراث والتاريخ يؤكد بهما على صدق ومصداقية ما يطلقه في روايته، فالفن الحديث... الرواية.. لم يحرز شرط مقبوليته ومصداقيته في فنيته بعد، فكان لا بد من توثيق وتأكيد مقولاته من علم متفق على صدقه... التاريخ...

بعد روايتين أو ثلاث يتخلى نجيب محفوظ عن مشروعه التاريخي عائداً إلى الرواية الواقعية متأملاً ما حوله، قارئاً حركة المجتمع في نوسانه ما بين زقاق المدق وخان الخليلي. ولنلاحظ استعانته بأسماء الأمكنة جغرافياً، فهو لم يكتف بالحدث الواقعي، ولا بالشخوص الواقعية، بل استعان عليهما بالجغرافيا الداخلية المصغرة.

أما صديقنا الأرناؤوط فلقد أكمل مشروعه، ولكن في مكان بعيد الحجاز، عمر بن الخطاب، فاطمة البتول... وطارق بن زياد، وكما نرى فالشخصيات كلها بعيدة تاريخيّاً، بعيدة جغرافياً، وبعيدة بيئيّاً، واجتماعياً.

ونعود إلى السؤال: لماذا...؟ لماذا عاد المصري إلى البيئة المحيطة الواقعية والشخصية المحيطة الواقعية؟ ولماذا نحا السوري إلى التاريخ، والتاريخ المؤسس حسب الثقافة المسيطرة على العصر آنذاك، وأعني الثقافة الإسلامية؟ فهو لم يُحِلْ إلى الفرعونية كنجيب محفوظ، بل بدأ التاريخ بإرهاصات ما قبل الإسلام، ثم بظهور المعجزة الإسلامية، ثم بمتابعة الشخصيات الإسلامية الكبرى عمر، فاطمة، طارق بن زياد.

ومتابعة للسؤال الذي بدأنا به موضوعنا سنلاحظ أن المزاج السوري المصدوم بالجغرافيا الجديدة التي حبس بها أعني سورية الجغرافية والسياسية التي فرضها عليه المنتصرون الغربيون على غير إرادة منه، هذا المزاج الذي صنعه تاريخ بدأ منذ دخول خالد إلى دمشق، مروراً بكل الدول والدويلات الإسلامية التي عاشها خلال أربعة عشر قرناً. تاريخ تركه دون تاريخ سياسي خاص به، تاريخ تركه دون تاريخ حكومي خاص به، تاريخ تركه دون تاريخ ثقافي منفصل ولو إلى حد عن التاريخ الثقافي المحيط به، الشيء المخالف تماماً لمصر، المفصولة تقريباً عن الجغرافيا المحيطة بها، والمستقلة رغم احتلالاتها وحكامها الكثيرين بشخصيتها الثقافية والاجتماعية، والتي لم تمزق أبداً وهذا لحظها الحسن إلى دويلات أصغر من مصر التاريخية حتى الفرعونية.

مصر بشخصيتها كانت ماثلة في ذاكرة محفوظ، أما سورية التي صنعها الغرب المنتصر، فلم تكن ماثلة أبداً في ذاكرة أرناؤوط، أو ذاكرة الكتَّاب الذين تلوه.

وكما قلت في أكثر من مناسبة: إن التاريخ السياسي السوري للقرن العشرين كله لم يفرز حزباً سياسياً واحداً أعلن أن سورية بلدي ووطني ومنتهى حلمي السياسي، بل كانت الأحزاب السياسية السورية كلها ترنو إلى الخارج أملاً في الوحدة، وخلاصاً من القفص الجديد الذي حبست فيه الأحلام وأعني سورية السياسية السايكس بيكوية.

فكل الأحزاب العروبية كانت ترنو إلى الوطن العربي الكبير بل الأكبر من أي مشروع سياسي قابل للتنفيذ، والقوميون السوريون كانوا يحلمون بسورية كبرى تضم بلاد الشام وجنوب تركيا المعاصرة والعراق، بل... قبرص أيضاً. والأممية الإسلامية لا ترضى بأقل من دولة تضم كل الأقطار الإسلامية، والأممية الشيوعية الخ.

هذا كله كان في وعي، أو لا وعي الأرناؤوط، وهذا ليس مهمّاً حين وضع روايته الفنية الأولى مبتعداً عن البيئة الواقعية، والشخوص الواقعيين والأحداث المجاورة والمرئية والمشاهدة واقعياً.

هاتان البدايتان. هيكل ومحفوظ و... الأرناؤوط ستتركان بصمتهما قوية على الأدب الروائي في كلا القطرين، فسيتناسل محفوظ وهيكل في الكتَّاب المصريين حديثاً المتحدين في البيئة والواقع المصري والبعيدين عن قراءة العالم المحيط، وسيتناسل الكتاب السوريون من الأرناؤوط. أتراه التناسل التأثري فعلاً، أم أنه المزاج السوري الذي سبقت الإشارة إليه، فكثرت الكتابات شعرية ومسرحية تتحدث عن بغداد أسطورية، أي: ليست بغداد المعاصرة والتي لا يعرفونها، وعن غرناطة أسطورية، بل وصل الأمر بكاتب مسرحي عظيم هو مصطفى الحلاج إلى الكتابة عن درسدن، ولم يكتب عن دمشق التي

يعيش فيها والتي كان وزيراً فيها، وكان مثقفاً معروفاً فيها.. وكان الأمر أشد وضوحاً في الشعر والمسرح في الحديث عن المكان الحلم، كانوا والآن تحضرني الصورة. فقد كان حالهم حال الناقه من عملية بترت فيها ساقه ولكنها ما زالت تحكه وتؤلمه، فهو يشعر بألمها بأكثر مما يشعر بألم الذراع التي ما زال يملكها.

درست في مصر، وكان من حسن حظي أن أكون في مصر في ستينيات القرن الماضي، العقد الأكثر زهواً في تاريخ الثقافة في مصر، وربما في العالم العربي، الكتب المبذولة شبه المجانية، المسرح التجاري والمسرح عالي الفنية في كل المسارح، السينما بمهرجاناتها وإنتاجاتها المحلية، المراكز الثقافية العالمية المتنافسة على عقل المثقف الناشئ؛ جون كنيدي، المركز البريطاني، الفرنسي، الروسي وطبعاً المكتبات المصرية الكثيرة، وبالإضافة إلى كل هذا كان هنالك شيء لم ينتبه إليه الكثيرون وأعني سور الأزبكية، ففي أوائل الستينيات حين أصدر عبد الناصر قراراته الاشتراكية كان من نتاجها أن مئات الآلاف من الأجانب المقيمين في مصر أخذوا في النزوح، ونحن نعرف أن أوّل ما يتخلّى عنه المهاجر عند هجرته هو الكتاب ثقيل الوزن قليل الثمن، فامتلأت أسوار الأزبكية بأطنان من الكتب المجانية أو شبه المجانية بالإنكليزية والفرنسية والعربية و... تشكل وعيي الأولي في تلك الفترة من مجموع ما ذكرت.

يذكر الكثيرون عند كتابة ذكرياتهم عن الكتابة أنهم بدأوا كتابتهم بالشعر، ولكني لم أبدأ الكتابة بالشعر، ولا بالقصة القصيرة، بل بدأتها بكتابة الرواية، وكانت روايتي الأولى وقد كتبتها في الثامنة عشرة من عمري ثم تلاها كتابة عدد من الروايات التي لم أنشرها وربما لن

أنشرها إلى أن كتبت روايتي ملكوت البسطاء، وكنت أؤدي خدمتي العسكرية.

وكان لي زميل متقدم في الخدمة هو الناقد خلدون الشمعة الذي قرأها متطوعاً، فأعجب بها وحملها إلى اتحاد كتاب سورية، وكان الاتحاد دار النشر الكبرى في سورية ولم يكن علي عرسان قد وصل إلى رئاسة الاتحاد حينذاك، فنشرها الاتحاد وأحرزت صدى نقدياً طيباً، فقد كانت متقدمة تقنياً إذ كانت رواية أصوات وكانت تستفيد من الكتابة الحديثة في استخدامها ما سمي في حينه بتيار الوعي... كتبت الرواية في العام 1973 ونشرت في العام 1975، وتحولت إلى مسلسل تليفزيوني في العام1977، وكان هذا ظاهرة جديدة غير مسبوقة في سورية، أن يتحول عمل روائي إلى تليفزيوني بعد أقل من عامين على طبع الرواية.

في هذه الرواية لم يكن الجو العام الثقافي السوري قد أعاد صوغي، فقد كنت ما أزال أعيش ضمن الحالة الثقافية لابن الثقافة العالمية، ثم للثقافة المصرية، وعلينا ألا ننسى أن القاهرة في الستينات كانت ما تزال مدينة كوزمو بوليتانية، تلقى فيها الأوربي والأميركي والأفريقي والآسيوي القادم من شرق آسيا.

كانت مدينة تعج باللغات والثقافات وصراع الأفكار، الماركسية، والليبرالية، والعروبية و... بدرجة أقل التيارات الإسلامية المتشددة، تلك التي ستظهر بعد هزيمة التيارات السابقة كلها في الشرق، أما في دمشق، وهي مدينة- واحة- سأكشف عن دواخلها فيما بعد في الكتاب الأول من ثلاثية التحولات، أعني "حسيبة"، فهي مدينة غرقت في

العزلة الثقافية منذ مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وابتعدت عن العاصمية، وعن العالمية، وعن الكوزمو بوليتانية، وعن الهلينستية التي صنعت مجدها فيما قبل الإسلام.

كانت مدينة قد دفعها العباسيون إلى العزلة، ودفعها انتقال العاصمية منها إلى بغداد، ثم إلى مصر بأسمائها المختلفة الفسطاط، والقطائع، ثم القاهرة. وانتقال العاصمية فيما بعد إلى استانبول لتصبح حواضر الإسلام استانبول والقاهرة. و... حلب الواقعة على طريق التجارة العظيم طريق الحرير. وانعزال دمشق إلى دور صغير هو المحطة الأخيرة على طريق الحج الشامي ولولا هذا الدور فلربما اندثرت المدينة، أو تحولت إلى قرية ليس من يسمع بها كمنبج التي كانت يوماً هيرابوليس المجيدة والمحج.

قفزوا بدمشق محطة الحج الأخيرة إلى عاصمية جديدة لدولة غير مرحب بها من شعب يطمح إلى ما هو أكبر من هذه الجغرافيا السجن، ويطمح إلى عاصمة أكثر زهواً من هذه المدينة الغارقة في تاريخ لا تعرف كيف تفيد منه، وتفيد به، واكتمل الأمر في وصول العروبيين إلى الحكم وهم ينظرون إلى دمشق مدينة محطة إلى حلم أكبر ووحدة أكبر، وكان التناقض.

كتَّاب مثل معظم كتاب العالم الثالث ذوو أصولٍ ريفية ينظرون إلى المدينة الجديدة التي حلُّوا بها على أنها مدينة الإثم والخطيئة والفساد مقرونة بالقرية البريئة النظيفة السعيدة إلى آخر ما قرأنا منذ أحمد عبد المعطي حجازي وحتى ممدوح عدوان.

وفي الوقت نفسه الذي يرفضون فيه مدينة الإثم هاهم يرفضونها لأنهم إن أقروا بها مدينة وعاصمة فهم قد خانوا حلم التوق إلى المدينة الحلم، مدينة الأمل، مدينة الخروج من السجن، القفص، الوطن الجديد المفروض من الغريب الأجنبي، نزوعاً إلى مدينة قد طهروها ونزهوها وبيَّضوها، متجاهلين مذابحها وهزائمها، وطغاتها، مدينة الحلم العربي، عباسية كانت، أم حمدانية، أم أندلسية، وهكذا فضلوا المدينة الورقية المنزهة على المدينة الواقعية التي يعيشون بين ظهرانيها، ولما كانوا الأكثر، فقد صار الانتماء إلى المدينة العاصمة الجديدة مخيفاً ومشاركة في الخيانة. وهكذا اندمجت مع الجو الأدبي الشعبوي الديماغوجي وتنكرت للمكان كما تنكروا، وكتبت عدداً من الروايات تجاهلت فيها المكان والذي كان أجمل ما اشتغلت عليه في روايتي المنشورة الأولى ملكوت البسطاء. وأخذت أكتب عن مدينة غير ذات اسم. كانت المدينة دمشق، ولكني لم أكن أجرؤ على تسميتها فقد كانت الإيديولوجيا تحظر، وكانت المدينة بيروت ولكني لم أكن أجرؤ على تسميتها. كنت قد أصبت بالمرصن السوري، هلامية المكان، ومن الغريب أن كثيرين من الكتاب الروائيين السوريين عاشوا في دمشق لعقودٍ، ولكنهم أبداً لم يكتبوا عنها (حنا مينه) وحتى حينما كتبوا كتبوا متأثمين مفتعلين بعدما كتب حنا مينه مرة مقالاً تحدث فيه عن اندهاشه من نفسه لعدم قدرته على الكتابة عن دمشق، فكأنما كانت المدينة تتأبّى متحصنة منه!!!.

عبد السلام العجيلي كتب عن دمشق فأنَّثها وجعلها تنتظر متلهفة ومتحرشة بالريفي الفحل... هاني الراهب وهو كاتب كبير وأحمد يوسف داوود كتبا عنها من منظور الهامشي لم يستطع الوصول إلى

نسغ المدينة أو من منظور الريفي الفحل تفسده المدينة الدنسة. طبعاً نبيل سليمان في رباعيته المطولة والتي قدم فيها منمنمة مطولة يستكشف فيها سورية بادية وريفاً ومدينةً كتب عن المدينة، عن دمشق، ولم تكن المدينة أو المكان هدفاً أو غرضاً، فالهدف أو غرض الرواية وهو غرض نبيل كان تقديم صورة ملحمية عن نشوء دولة مدن وشعب.

بعد عدة سنوات سيظهر عدد من الكتاب الشبان سيقومون بما يسمونه ثورة على الأجيال السابقة وعلى الإيديولوجيا فيكتبون عدداً من الروايات التي يدور عالمها في الزوايا العتمة من الجسد البشري، كتابات تتحدث عن الجسد ومغامراته، فكأنها تحد لكتابات كانت تحوم حول الحمى ولا تقع فيه، ولكن المكان بمعنى بطولة المكان، مشاركة المكان في الفعل، هل نذكر ضريح الحسين لدى نجيب محفوظ، هل نذكر الحارات وأصواتها وزحامها وروائحها لدى يوسف إدريس... على أيّة حال فتجربة شبان الكتابة ما تزال غير متبلورة ولم تأخذ شكلها النهائي بعد، وربما كان من المبكر الحديث عنها، ولكنها والحق أقول تجربة جميلة (فنيّاً) واعدة بجواهر نحن في انتظارها بعد التخلص من النزق الذي يحدوها.

بعد عدة سنوات من التأمل والقراءة المكثفة وخاصة في تاريخ وأديان المنطقة والتوقف عن الكتابة المشروعية، وكنت قد راجعت نفسي متسائلاً: وما الذي يجبرك على التنازل عن مشروعك وأنت أدبياً لم تتشكل في هذه القطرية، بل كنت في قراءاتك، وفي تربيتك العقلية،

وفي رحلاتك ابناً لكونية أخرى، فما الذي يجعلك تتنازل عن مشروعك لإرضاء من ليس مهمّاً رضاؤه.

و... بدأت كتابة روايتي المطولة (التحولات) حسيبة وفياض، وهشام أو الدوران في المكان. في هذه الرواية كنت قد تعمدت فتح نوافذ الذاكرة كاملة. كنت قد تعمدت فتح عينيَّ حتى أقصاهما أرى وأرقب وأقارن وأذكر. كنت أعيد صوغ ذاكرتي الشخصية، وذاكرتي الأدبية والورقية في آنٍ.

أخذت دمشق تتكشف أمام عينيَّ: مدينة واحة واقعة على طريق الحضارات الكبرى المصرية، المقدونية، والفارسية، الرومانية، والعربية الكثيرة، و... الطورانية بمختلف تسمياتها بعد خروجها عن سد يأجوج ومأجوج الذي حبسها عن المنطقة لقرون... كانت المدينة تتكشف، وكنت أرى رأي العين، ورأي الذاكرة حاراتها الملتوية، وعتمتها الكابية، وجدرانها، بيوتها المطلة على الحارات الرمادية ـ الرصاصية، المتسخة، الخجولة من وعن العالم، وكنت أعرف ما تخفي هذه الحارات وهذه الجدران، وهذه النوافذ المغلقة أبداً لا تنفتح إلا في مناسبات شديدة الخصوصية.

كنت أرى في المتحف جِرار الأمفورا السورية القديمة وعليها رسوم راقصات الأمبوبايا، أو الراقصات مع الأنبوبة، القصبة، الناي حسب التسمية، أرى فرصهن ومحاولات طيرانهن، وكنت قد رأيت في الريف السوري بل في ريف دمشق هؤلاء النسوة حفيداتهن في الثياب السود وهن يرقصن ولكن رقصة الندابات وقد أحطن رقابهن بشالٍ أسود يلطمن ويندبن ويبكين عزيزاً ضاع.

كنت أقارن بين النسوة في كلا المشهدين وأتساءل: أتمضي الحضارة إلى الأمام فعلاً، وهل الحضارة هي التقدم التقني، أم أنها الفرح بالحياة، وما الذي جعل راقصات الأمبوبايا يتحولن إلى هاته الندابات الباكيات على الحياة، والباكيات من وجع الموت.

كنت أمر بحارات دمشق الكئيبة، وكنت أعرف أني إن فتحت أو فتح لي واحد من هذه الأبواب، فسأرى الجنة مبنية على الأرض، الباحة.., المشرقة، والبحرة الدافقة، والأشجار المترعة بالليمون, والكبّاد, والدراق الزهري، بشجيرات الورد والياسمين، وتساءلت: هل تخفي هؤلاء النسوة الندابات راقصات الأمبوبايا تحت ثيابهن السود؟، وما الذي جعل أهالي هذا الإقليم يخافون من الفرح، ويخافون إظهار الفرح، يخافون السعادة، ويؤجلونها إلى ما بعد الموت، إلى جنة الملتقى؟

تساءلت وأجاب التاريخ يذكرني بالمآسي المروعة، الآشوريون وقسوتهم الدموية، العبرانيون ودمويتهم المرعبة، الحثيون، الميديون ,الإخمينيون الـ.... وما الذي كان على سكان الواحة من الأمبوبايا فعله، هل يعرضون فرحهم وجمالهم وحبهم للحياة على هؤلاء الوحوش فيأكلونهم أحياء، أم يخفونها تحت قناع التقشف والسواد والعزلة.

وقفزت الفكرة. أهذا هو إذن جذر الباطنية والتقية التي تميز سكان المنطقة.. جنتي، فرحي، عقيدتي.. لي أنا، أنا فقط، وليس للآخر لأني إن عرضته للآخر، فقد عرضت خاصرتي الطرية وجسد الأمبوبايا الطري عاشق الحياة إلى رماح القتل وسهام القسوة.

أترى الباطنية التي ميزت سكان الإقليم ليست إلا تخفي الأمبوبايا تحت رداء الندابات الأسود. وأخذت أراقب هذه الثنائية شهوة الحياة، وإظهار الزهد فيها، السيران والنزهة على أنهار دمشق ومتع الطعام والشراب بقايا فرح الأمبوبايا وأعياد الربيع الأسطورية و... العباءات السود خيام من وقار وحزن وألم وخوف من الآخر.

الباطنية في المعمار قَدَرُ المدن، والباطنية في العقيدة قَدَرُ الريف، ثنائية الإقليم/ المعبر ما بين الحضارات والوحشيات والقتل، صليبيون، وتتار وثنيون، صليبيون وتتار مسلمون، تتار وصفويون، مماليك وعثمانيون، قباقولية, ودالاتية سغمان، ويرلية، حرس قومي، وحرس غير قومي إلى آخر أسماء القساة والدمويين.

كنت أتساءل وأنا أذكر حديث الأمهات عن الرحمة التي حلت بنا مع الإسلام بعد قسوة الرب نفسه مع اليهود، فقد كان اليهودي إذا مازنا صحا في اليوم التالي ليرى على جبينه مكتوباً بقلم القدرة زانٍ يحملها حيثما تحرك، وإذا ما سرق كتب قلم القدرة على جبينه سارق وإذا ما قتل الخ... ثم جاء الإسلام فرحمنا برفع هذه العقوبة عنا وتركها إلى يوم القيامة نحاسب عليها إن لم نتب ويغفر لنا.

وأخذت أقارن بين الأمبوبايا وجبين الزناة، وأتساءل منذ متى حل علينا سواد الندابات. أتراه التأثير العبراني، أم تأثير قساة وحوش ما قبل سد يأجوج ومأجوج. أترى قسوة العبرانيين نفسها ليست إلا الرد الأولي المنطوي على نفسه والمعاقب نفسه على ملذات الحياة, والباحث عن سبب لكل هذه المحن التي حلت بالإقليم عبر مرور قساة صحراويي ما

قبل السد، أم أنها الرواقية حين تحولت إلى دين يحرم ملذات الحياة وملذات الفرح.

و... بدأت كتابة رواية التحولات في كتبها الثلاثة كما أسلفت وكنت حين وضعت اسم التحولات أضمر اسمها الإغريقي اللاتيني ميتامور فوزيس وأعني بها التناسخات.

كنت أرى عالم الشرق العربي بعد ثنائية الأمبوبايا/ الندابات وقد توقف عن الانحياز إلى أيّ منهما، بل عمد إلى دمجهما في ثقافة واحدة متعايشة، أمبوبايا يعيشها القلب الشهواني، الفرح، محب الحياة..,, وندابات يظهر فيها للعالم زهده في ملذات الحياة، فالفرح الأكبر، والمتعة الكبرى هي فرح ومتعة ما بعد الموت. إنها في الجنة التي وُعِدَ بها المتقون. وأعدت قراءة أشعار المتصوفين، إنها الثنائية نفسها، لغة شعرية ظاهرها الأمبوبايا، شهوة الحياة، شهوة الخمر، شهوة الحبيب مذكراً كان أم مؤنثاً. و... مضمرها شهوة ما بعد الموت، شهوة التقى، الشهوة إلى المطلق، وتساءلت، فلم استخدم هذه اللغة المزدوجة، لماذا كان توقه المعلن ابيقوريا وتوقه المضمر رواقياً. ما الذي ألجأه إلى هذه الباطنية.

وبدأت كتابة رواية التحولات. بدأت غزو المكان، الحارة، والنهر الصغير، والبحرة في الباحة، وأشجار الزينة المحبوسة لي وعليَّ فقط.

الأرابسك والزخارف واللوحات الإيطالية بنسائها السابحات الجميلات ترسم على الطوان (السقف المستعار للإيوان) الأسلحة القديمة والحديثة المعلقة على الجدران تذكيراً بماضٍ وتحذيراً من مقبلٍ مجهول.

بدأت غزو المكان وتأثيره على حسيبة، وعلى صياح، وعلى حمدان. شخصيات في الرواية... ثم انفجر التأثير وعلى غير رغبة مني أو تخطيط لدى خالدية، شخصية لم يكن مخططاً لها أن تكون أولية، ولكنها صارت فنانة لم تتعلم الفن، أو التشكيل، ولكنها تتقن التطريز وحين تعصرها القسوة، هجر الحبيب تأخذ في التعبير عن مأساتها بالرسم والتطريز. صانعة عالماً موازياً للألم. إنها الأمبوبايا وقد نزلت عن جرة الأمفورا إلى الأرض لتفاجأ بالندابات يحاصرنها ويدننها فلا تجد خلاصاً من هذا الحصار إلا بموت أشبه بالانتحار، وانتحار أشبه بالعودة إلى جرتها الأمفورا.

سقطت عن الدرج وأسقطت معها عشرات أصص نباتات الزينة، كانت تتزحلق، وتزحلق معها أفراح الأيام وألوانها وعطورها حتى إذا ما وصلت إلى الباحة وصلت ومعها الأصص تغطيها وتجعل لها قبراً من ورود... أليس هذا قدر الأمبوبايا في زمن الندابات.

القيت هذه المحاضرة في باريس ، معهد العالم العربي ...2010

اليوتوبيا.....

منذ عودة كولومبوس من الهند أو ما آمن وظنها الهند، وكان عليه أن يمضي عائدا الى أوروبا العجوز حاملا أسرار الهند وذهبه، ونماذج وعينات من نباتاته، وحيواناته، و.... بشره الذين اختطفهم من فردوسهم عنوة أو خديعة، واستطاع بالذهب الكثير الذي حمله معه من " الهند"أن يخلع عن ظهره ثوب المخادع المتهم به من الكثيرين ويلبس ثوب المكتشف، فلقد اكتشف الطريق الى الهند عبر الغرب وليس عبر الشرق كما فعل ابن الجيران المشاغب البرتغالي "فاسكو داغاما" كما كان يحلو له تسميته،...

اعلن كولومبوس للملكة إيزابيلا انه قد وجد الطريق الخلفي للهند وتوابلها وكنوزها، وكان فاسكو داغاما قد سبقه الى اكتشاف طريق

الهند عبر الرأس الجنوبي لأفريقيا عبر "رأس عشم الخير" كما ترجم المرحوم رفاعة رافع الطهطاوي بعد ثلاثة قرون ونيف اسم رأس الرجاء الصالح، الاسم الذي سيغير تاريخ التجارة، وتاريخ العلاقات الدولية وتاريخ مراكز الثقل الاقتصادي للعالم.

كان مما شجع الملكة ايزابيلا على المغامرة مع كولومبوس هو الغيرة من الدويلة الصغيرة الناتئة في خاصرتها البرتغال التي لا يتجاوز عدد سكانها المليون وباستطاعتها الإمساك أو اختطاف طريق "رأس الرجاء الصالح" من المسلمين، وتغييرها التوازنات الكبرى في العالم الإسلامي، وانهيار الدولة المملوكية لصالح الدولة العثمانية بعد أقل من ربع قرن من استيلاء الجار المشاغب... البرتغال...على مفتاح طريق الهند حول أفريقيا الجنوبية، وليس عبر مصر المملوكية ، ودخول الشرق العربي الإسلامي في مجمدة النسيان.

منذ ذلك القرن العجيب الذي استطاع فيه الرجل الأبيض الخروج من عالم الضرورة إلى عالم الوفرة، بدأت كتابة جديدة غير مألوفة في الأدبين الكلاسيكي والمعاصر الأوربيين، فظهرت رواية "دون كيخوته" التي تلخص السخرية الفاضحة من كذب عالم الفروسية الذي كان الأدب الروائي منشغلا به بعد أن قلد وتغنى بعالم لا وجود له في أرض الواقع، عالم كان قد ترجم وتبودل بكثرة عن أدب الفقير المثقف "البيكاريسك"، الذي يحمل الحكمة كلها، والفقر كله، وكان لابد من تجاوز أدب الفرسان والمثقفين الفقراء المحتالين على العيش بذلاقة لسانهم، وظرف حضورهم، فالثروات الحقيقية لم تعد مقصورة على الفرسان الإقطاعيين، ولا على مالكي القلاع والأراضي الزراعية

بحجم بلد، بل شارك فيها واحتكرها القراصنة، والتجار، والأهم المغامرون، مكتشفوا الفراديس الأرضية في الأميريكتين، وقي جزر المحيط الهادي... ثم الهندي، فلقد وصلوا أخيراً الى الهند، ولكن ليس عبرالغرب إلى الشرق بل إلى الشرق مباشرة، وكان على الجغرافيين الانتظار إلى زمن حتى تكتشف كروية الأرض عبر الدوران حولها إلى الغرب، فالغرب حتى الوصول إلى الشرق حيث سيصبح كل شرق "هند"، ومن أكبرها الهند الهولندية أوإندونيسيا.

في القرنين ما بعد الاكتشاف الأول للقارة المختفية "أميركا" والبدء بنقل الذهب بالقناطير المقنطرة إلى إسبانيا ثم البرتغال، وأخيرا أوربا الغربية، بريطانيا وفرنسا و.... هولندا الخ، ظهر نوع جديد من الأدب، إنها المفاجأة أن في العالم جزراً تخفي حضارات أخرى، وأناساً سعداء آخرين غير الغربيين "في ذلك الحين ظهرت الفكرة الرومانتيكية عن البدائي النبيل" فظهرت رواية روبنسون كروزو، وفرايداي الأسود و..... ظهرت رواية "رحلات غليفر"....، والعوالم الأخرى من عالم الأقزام إلى عالم العمالقة، وعالم الخيول المفكرة بطريقة أفضل من تفكير الإنسان. وهكذا بدأت فكرة أننا لسنا "العالم" وهكذا بدأ الشك يعتري فن الرواية حول تمركز المعرفة والعقل والحلول الجذرية لمشاكل...نا، فهناك حلول أخرى اكتشفها آخرون ليست الثروة الطريق إليها، وهكذا رحل غوغان إلى الكاريبي متخلياً عن الجنة "الحلم" أوربا، وظهرت روايات البحث عن الفردوس الأرضي في جزر ضائعة في أمواج البحر "ستيفنسون وجزرالمحيط

الهادي"، وجنان الجزر الكاريبية...، وفي الجبال المعزولة.... هيمالايا.... وفي قارات جديدة!

في ذلك الحين من تأزم الأوربي بين جنة السعادة التي حققها بالثروة، وبين حياة الحرية، والبساطة الدافئة في الجزر المدارية، والاستوائية حيث لن تكون بحاجة إلى بيت يقاوم العواصف والزلازل، فبيت من قصب وقش يضمك مع المرأة التي تشتهي أكثر من كاف من نظام حكم معقد من انتخابات، وتوازع سلطات، ومجلس لوردات، ومجلس عموم الخ إذ يكفيك وجود عش وساحة في القرية تناقشون فيها مشاكل القرية في ديموقراطية لن يخادعك فيها بهلوانات الخطباء، ومتكبروا اللوردات... وعاش الأوربي لقرن أو قرنين يستمع الى جانب مدفأته خشبية الوقود، ويقرأ عن البحارة الجريئين، وعن الجزر السعيدة، وعن النساء المتخففات من الثياب والتمنعات، عن شجر يحمل ثماراً لا تنهك نفسك في العناية بها، بل هي هبة الطبيعة فقط، عن الأسماك ترتمي تحت قدميك متخلية عن البحر والحياة، عن الغناء طيلة الوقت والرقص، وشرب البيرة والنبيذ المحليين، وتوقف المفكرون مندهشين: أعوذ بالله. أليست هذه هي الجنة؟ إذن، فالجنة يمكن العثور عليها على الأرض إذن، أعوذ بالله، ونحن نختنق بهباب الفحم الحجري، ونعاني من اليقظة قبل الفجر لنعدّن، ونمضي إلى أعمال كريهة كنزح الروث الآدمي من مستوعباته، ونعاني من القمل يرتع في لحانا وشعورنا..... واستيقظت فكرة الجنة في الخيالات والعقول..... حينها وضع توماس مور كتابه عن "اليوتوبيا".

اليوتوبيا كلمة إغريقية تعني اللامكان وستترجم إلى الإنكليزية بعد زمن على أنها الـ never land أي الأرض التي لا وجود لها.... وفي هذا الكتاب سيطرح "الرجل لكل العصور" توماس مور فكرته عن الدولة المطلوبة.... طبعا العالم "لكل المفكرين الأوروبيين هو أوربة فقط" وماعدا أوربا فهو البربرية، صحيح أنها يمكن أن تكون سعيدة خارج الملوك والقوانين والبرلمانات... ولكنها ليست... الدولة...

منذ وضع مور كتابه اليوتوبيا تكاثرت أحلام بني البشر في عالم أكثر سعادة... وتكاثرت الرؤى الاشتراكية في إخراج الإنسان من بؤرة العمل الأسود وعدم قدرته على رؤية الضوء الطبيعي، فهو منحن فوق عمله، منحن فوق جوع أطفاله، منحن فوق ظروف عمله غير البشرية، وتوقف المفكرون: أمن أجل هذا البؤس اكتشف الإنسان الطاحون المائية، ومن أجل هذا بدأ الفرح في اختراع الطاقة البخارية، ومن أجل هذه العبودية أمام الخبز... وبدأ بحث جدي عن حل... بعد إخفاق الثورة البورجوازية الفرنسية في تحقيق السعادة لبني الإنسان رغم أنها حررته من الإقطاع وإقطاع الكنيسة الأشد هولاً، وهكذا تقدم إلى الساحة الفكرية والحلمية الفكر الاشتراكي:

السانسيمونيون، وفورييه، وآخرون، وفكر كثيرون: لم لا نحقق هذا الحلم الاشتراكي بعيداً عن القارة العجوز أوربا؟ وبدأت الهجرات الحلمية ذات الفكر الاشتراكي في الرحيل الى أميريكا ونيوزيلاندا، والأرجنتين الخ، ولكن التأسيس عمل مرهق، وليس على هذه البساطة، واكتشفوا ولو متأخرين اعتيادهم على كأس نبيذ مبّرد ساعة العصر، واكتشفوا الحنين الى سماع الكونشرتو في الأماسي، واكتشفوا.... كل

عاداتهم البورجوازية التي ظنوا انفسهم قد تخلوا عنها من أجل أرض الحلم، وبدأ التساقط، وبدأ استئجار العمالة المجاورة الفقيرة للقيام بالعمل الأسود، وأخذت الأفكار الاشتراكية في مراجعة نفسها، وأخذت الاشتراكية تسعى الى "العلمية" و..... ظهر الفكر الماركسي..

في الوقت نفسه الذي اشتد ساعد العسكريتاريا "البروسية" الساعية الى الوحدة ولا يقف في وجهها إلا فرنسا واحتكاراتها العالمية، وكان الاصطدام الكبير بين الإمبراطورية النابوليونية الفرنسية الثالثة، وبين ألمانيا المتحدة تحت زعامة بروسيا، وكانت الهزيمة الفرنسية واحتلال باريس، وهروب المغامر نابوليون الثالث.... وكانت المقاومة الباريسية النبيلة لتخاذل الحكومة الفرنسية،... والاحتلال الألماني، وكانت أسطورة الكوميونة الباريسية التي سيقول عنها ماركس: أعرف أنها ثورة متعجلة، وأعرف أنها لن تنجح، ولكني أخاف أن يقول التاريخ في السنوات المقبلة إن كارل ماركس تخلى عن الثورة في باريس عند قيامها، وهرب منها.

منذ ذلك الحين تسمى المؤمنين بالفكر الماركسي بالـ كومونيست.... أي المؤمنون بالفكر الذي آمن به ماركس عن الوقوف مع الكوميونة بغضّ النظر عن نجاحها.

الدولة الفرنسية التي انبثقت عن معاهدة الصلح مع ألمانيا بسمارك، وكانت قد قبضت على من شارك في كومونة باريس سألت المعتقلين: ما الذي تريدونه؟ فقالوا: المجتمع العادل حيث لا فقير ينام دون عشاء، فردوا عليهم: وهل هذا ممكن الحدوث؟ فقالوا: بل واجب الحدوث!!!! ندئذ شحنوهم جميعاً إلى دولة الجزائر العربية المحتلة، ووزعوا عليهم

آلاف الدونمات من أفضل الأراضي الزراعية في الجزائروالتي سبق طرد فلا حيها منها، وقالوا: حققوا المجتمع الاشتراكي العادل!!

سيتكرر السيناريو نفسه، فالمعمرون أي جماعة الكوميونة، ومعظمهم من المتعلمين والمثقفين، و.... البروليتاريا المدينية ممن لم يعتادوا العمل الفلاحي، ورغم أن الدولة الفرنسية سهلت لهم القروض المصرفية، والمساعدات للفلاحين والمعمرين، وشراء البذور الممتازة، والآلات الزراعية إلا أنهم بعد زمن لم يطل... أخذوا يحنون الى مسارح باريس، وحانات باريس، ونقاشات المقاهي في باريس ، والأهم إلى شرب كأس من النبيذ المبرد بعد عودتهم إلى البيت، ولكن العمل في الزراعة لا ينتظر، فطلبوا سِرّاً عون الجزائريين أصحاب الأرض المتسكعين حول ماكان مزارعهم ليعينوهم بهذا العمل المجهد أو ذاك، و.... بذلك أعادوهم على غير رغبة منهم إلى أراضيهم، ولو عاملين بالعمل الأسود، فهاهم بعد شهور يطلبون عونهم إلى ما هوأهون من العمل المجهد، وكل عمل مجهد لمن لم يعتد العمل في الأرض..... ثم... الى العمل أُجراء عند المعمرين، وهكذا وجد الجزائريون من المحظوظين أنفسهم يعملون بأجر "ولو رخيص" على... أرضهم..... وفشلت يوتوبيا أصحاب الكومونة الباريسية، وكان عليهم أن ينتظروا قيام الروس بثورتهم اللينينية، ثم الستالينية لتحقيق مجتمع العدالة والوفرة .... وتأجيل الحرية لبعض الوقت.

و.... أطلقت النار على لينين قبل رؤية الحلم وقد تحقق، وقفز رجل من جورجيا لم يكن من رجال النخبة المفكرة اسمه يوسف ستالين إلى

كرسي السلطة مغتنماً عجز لينين المصاب حتى الإقعاد عن القيام بمنعه.

بدأ ستالين العمل على سحق الإقطاع، وملاك الأراضي حتى المتوسطة والصغيرة منها، وأخذ يصفي حساباته الشخصية مع رجال القيصرية، ثم مع المختلفين معه نظرياً من الكوميونيست.... أي في النظرية الاشتراكية نفسها، وفي عقر اللجنة المركزية، وبدأ الصراع فكرياً في البداية بين المنادين باشتراكية في بلد واحد "روسيا ستالين".... وبين القائلين إن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها إلا في ثورة عالمية، وفي العالم كله في وقت واحد "تروتسكي"، وانتصر ستالين ((فكر الاشتراكية في بلد واحد)) على تروتسكي، مفكر ((الاشتراكية في العالم كله في وقت واحد)) و.... وصل الأدب مبكراً، وصل بوصول ... إيفيغيني زمياتين....

إيفيغيني زمياتين كاتب وحالم روسي هرب الى أوربا الغربية بعد مطاردة البوليس السري القيصري له، فلما علم كما علم العالم كله أن البلاشفة قد استولوا على الحكم في روسيا المقدسة عاد ليشارك في معجزة صناعة الحلم الأزلي للبشرية، عاد، و.. عاد معه الكثيرون من روس، وأميركيين، وألمان، وفرنسيين، وبريطانيين... كان العالم امام ليلة "فقس بيضة التاريخ"، وكانوا يريدون أن يكونوا الشهود على هذه الولادة، وعلى إنجاز مجتمع الوفرة والحرية.

كانت صدمة الحالمين والمفكرين، والفلاسفة، والكتاب والشعراء مرعبة مما فعل ستالين بعد استيلائه على الحكم في روسيا، وسيكتب زمياتين في مقال له عن التجربة الستالينية، وبعد شهرته التي حاز

عليها بعد ترجمة روايته "نحن"... الخيبة في حلم البشرية منذ أن ملك الصياد الأول قطعة أرض وكتب على حدودها "هذه الأرض ملكي" وبدأت مآسي بني البشر، وبدأ حلم بني البشر في استعادة يوم الفرح والوفرة للجميع.

نشر زمياتين روايته التي سماها بكل وقاحة "نحن" نحن الذين حققنا الحلم اليوتوبي للبشرية، نحن من منع الملكية الخاصة، وعذاب الإنسان طمعاً في الحصول على قطعة من الملكية، فلم يحصل إلا على الخوف والقلق، وتسلط الزعيم مالك يو م الأرض، مالك القبور والمعتقلات، وعمليات الجراحة لانتزاع الخيال من أمخاخ الرفاق، وسيكتب زمياتين في مقال ترويجي لروايته:

"المشكل أن الستالينية أخذت في التحول الى مؤسسة خارجة عن الناس، وصار همّ المؤسسة الدفاع عن المؤسسة، لا عن الإنسان"، وسيكمل زمياتين: "الشيوعية صارت كنيسة جديدة همها حماية مصالح سادة المؤسسة أكثر من العناية بالفقراء والحزانى، الشيوعية الستالينية كنيسة تورمت وتضخمت حتى نسيت الحلم الأساس الذي جعل الناس "يتخلون عن أطفالهم ويسعون وراءها"، وصار هدفها كهدف كل الطغاة.... الكنيسة نفسها، الكنيسة بأساقفتها وكرادلتها، ومنتجعاتهم، ودكاكين منتقياتهم، ومشترياتهم، وأداروا ظهورهم للمسيح والسماء..... و.... والإنسان الذي قاموا من أجله.

في رواية "نحن" سندخل مدينة الكابوس المسمى"يوتوبيا"، والغريب أننا سنلحظ موتيفات "زمياتين" هذه تتكرر في روايتين لكاتبين أخريين حازا ربما شهرة أكبرمن شهرة زمياتين في الخيبة التي افتتح طريقها،

أما الكاتب الثاني فهو ألدوس هكسلي في روايته "عالم جديد شجاع" التي صدرت في ثلاثينات القرن، وكانت الرواية الثالثة، والأشهر حتى جماهيريا، الذي استخدمت كتابته على غير رغبة منه في الحرب الباردة التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، التي صدرت العام 1948، وكانت الولايات المتحدة قد عمدت في حربها على النظام الضد الستاليني أن نشرت هذه الرواية، ووزعتها وكالات المخابرات الأميركية وتوابعها حتى أني لأذكر شراء نسخة منها عن البسطة في دمشق بربع ليرة، وأذكر على غلافها صورة لرجل جبار الملامح، قاسيها بشاربين يغطيان نصف وجهه، ولم اعرف ما المقصود بصورة الرجل على الغلاف حتى سألت، فعرفت أنه ستالين سيد الاتحاد السوفييتي والمنتصر على دولة الشر "ألمانيا الهتلرية" والوعد الجميل في مجتمع العدل والكفاية..... وكان اسم الرواية الثالثة "1984" وكان اسم الكاتب... جورج أورويل...

المهم في رواية "نحن" لـ زمياتين.... سندخل عالم اليوتوبيا حيث المواطن" بطل الرواية يعيش في غرفة صغيرة في بيت ضيق، في دولة عالمية يحكمها "المحسن الكبير" ويعيش على هذا الشكل سكان المدينة المغطاة بقبة زجاجية عملاقة تمنع عنها الاتصال أو التواصل مع العالم الخارجي، وبطل الرواية المواطن 503، فلقد ألغيت الأسماء وحل محلها أرقام للتمييز بين الناس ويعلن "المحسن الكبير" وهو الزعيم، أن هذه القبة ما قامت إلا لتحميهم من العدو الغيور يحسدهم على جنتهم، ويريد تدميرها ليعيدهم إلى زمن الجوع الى الطعام، والى شهوة النساء قبل الثورة، ويكون هدف العلماء في هذه المدينة هو إنتاج

"التكامل" وهو مركبة فضائية ستكون مهمتها نقل تجربة اليوتوبيا والمحسن الكبير إلى سكان الفضاء... هل تذكرون إصرار زعماء الاتحاد السوفييتي على الخروج الى الفضاء منذ غاغارين، ولو جوّعوا الشعب المسكين!!!

في رواية "نحن" سنتعرف على حبيبة، عشيقة، زوجة البطل، حين تزوره وتنام معه، ونتعرف على صديقها الآخر الذي يعرفه بطلنا ويعرف بعلاقته مع ألحبيبة، و....الجنس في مدينة اليوتوبياهذه هو حق للجميع، ومشترك مع الجميع، فلا عقود دينية للملكية، ولا عقود مدنية، بل الحب والمضاجعة الحرة لكلا الطرفين، أما عن الحمل والولادة ومسؤولية الوالدين، أو أحدهما عن المولود، هذا الأمر الذي كان السبب الأول للزواج، ومباركة رجل الدين، والسبب الأساسي للإشهار هو حفلة العرس، ودعوة الضيوف الكثيرين إلى أن يكونوا الشهود على أن هذين الفردين قد وافق المجتمع ورب المجتمع على جعلهما المسؤولين والكفيلين للناتج عن هذا العقد "الأولاد"...

في يوتوبيا زمياتين "نحن" لا زواج، ولا أولاد، فالجنس حق ومتعة للجميع، والأولاد والإخصاب من مهام الدولة فقط.

الرواية كتبت ونشرت العام 1924، وأشارت إلى اختصاص الدولة بالإنجاب، ولم تقل: كيف، فلم يكن العلم قد استطاع حل هذا المشكل، وسنذكر ثورات كثيرة تمت في العصر الإسلامي وقبل الإسلام، وكان إعلانها الأول إسقاط التحريم عن الجنس، وعن مشروعية استضافة الضيف، وتهدئة جوعه بواحدة من نساء البيت، وهي الزوجة على الأكثر، وكانت المقولة الأشهر: لم لا تمنعون ضيفكم عن خزانة

طعامكم، وتمنعونه عمن يشتهيه من نسائكم.... والغريب أن الفرس، "وهذا ضمن التاريخ المدون" قبل الإسلام، أي زمن النبي الفارسي "مزدك" قد جعلوا النساء مباحات للجميع. ولم يشر أي من الثورات من البابكية في الاسلام وحتى المزدكية الفارسية قبل الاسلام إلى مصير الأولاد الذين سينتجون عن هذه العلاقات المشاعية.

أما في الرواية "عالم جديد شجاع" لـ ألدوس هكسلي، فقد قدم الحل العلمي: الجنس سبب الحروب والصراعات البشرية منذ فجر الخليقة وقابيل وهابيل هذا الجنس هو حق للجميع، وكلا الجنسين، ولا يشير هكسلي إلى كيفية منع الجنس عن التخصيب والولادة وبداية المأساة الزوجية "البشرية" فلكل شاب وشابة تعاطي المنشط الجنسي الذي يسميه لنا المؤلف هكسلي باللبان فقط "وهو لبان يتعاطاه الراغب في الجنس" ولا أهمية للسن بل للشهوة المتبادلة فقط، أما الجنس في مجتمع الوفرة، فهو كالجنس في الجنة، جنس للمتعة فقط، ولا يترتب عليه إخصاب وإنجاب، وواجبات لم يستعد لها الشريكان..... وحلم الجنس دون عواقب من حمل وتغيير لبرامج الحياة سيحققه مجتمع الرأسمالية حين يكتشف حبوب منع الحمل للنساء، والكوندومس للرجال الخ، ولكن هكسلي في روايته المبكرة للتبشير يرى أن العلم سيقدم حلا للبشر، وللإخصاب لم تقدمه الرواية الأولى " نحن" ولا الثالثة "1984"، أي.... إخصاب... المعامل صانعة الإنسان، ولكنا سنجده في رواية هكسلي، ففي روايته "عالم جديد شجاع".... سنرى مدير المجتمع يصحب التلاميذ الراغبين في الكشف عن سبب إعجاز هذا المجتمع، يصحبهم الى المعمل، وهناك سيرى أواني زجاجية

موصولة بأنابيب للهواء، و للسوائل المغذية الكثيرة، وفي هذه الأواني "صناديق زجاجية" سيرى فيها أجنة في الطور الأخير للحمل، وآلة تسجيل تلقي عليهم دروسا هامسة في الفيزياء المتطورة، وقد كتب على الجناح، وعلى كل صندوق الحرف A، ويقول المدير: هؤلاء هم من سيكونون قادة المستقبل، سياسياً، واقتصادياً، واختراعات، و.... إدارياً، ثم ينتقل معه الى الممر التالي، وهناك يلاحظ مئات الصناديق الزجاجية، وفيها الأجنة تنتظر الولادة، وقد كتب عليها الحرف B ثم يقول: وهؤلاء هم من سيكونون المديرين التنفيذيين، لن يسمح لهم بالمبادرات، وليس ذلك بإمكانهم، ويسأل المتدرب: ولكن لماذا؟ وينحني المدير على صندوق قريب، ويشير إلى المتدرب بالانحناء ليريه أنبوبا يضخ الهواء: كمية الأوكسجين المضخوخ في أدمغتهم أقل منها في الهواء المضخوخ في أدمغة الفئة A والعلم المبثوث لهم هو العلم الإجرائي والتنفيذي، لا المبادر، ولا مقدم الاكتشافات، ثم يقوده الى بهو آخر ليرى آلاف الصناديق الزجاجية، وموسيقى مارش خفيف يبث في القاعة، وفي آذان الأجنة، وقد كتب عليه الحرف C إنهم العمال الفنيون وكمية الأوكسجين المضخوخة إلى أدمغتهم أقل من المجموعتين السابقتين، ويستعد المتدرب للانسحاب، ولكنه يقوده بلطف الى البهو الرابع والمكتوب على بابه حرف D أو أبسيلون باليونانية ويقول: هؤلاء هم عبيد المستقبل، عمال المناجم، وعمال النظافة، والمهن الدنيا الذين لانقابات لهم، ولا مطالبات بساعات عمل أقل، ولا مطالبات بإجازات أطول.... لقد حللنا كل مشاكل المجتمع السابق، فأقللنا كمية الأوكسجين المضخوخة الى أدمغتهم بحيث انحط

ذكاؤهم وأكثرنا من الأغذية بحيث قويت عضلاتهم لا أدمغتهم كالفئة A.

في رواية "نحن" لن يقدم زمياتين الحل الذي وقفت البشرية أمامه عاجزة منذ أن قرر الأقوياء، والأثرياء، والمتبطلون تحويل الجنس إلى متعة وتسلية، ولن يكترثوا لما ينتج عنه من ثمار بشرية، فقفزالكاتب فوقها وجعل الجنس متعة مشتركة بين الرجال والنساء دون عواقب، فهو لم يتحدث عن العواقب، وهي المشكلة التي كنب عنها الأدباء آلاف الأعمال الأدبية، بل يبدأ عقدة الرواية ككل عقد الحياة بالمرأة ولكنها ليست المتفق عليها ومعها، الحبيبة، والزوجة، والشريكة الخ... المرأة التوراتية الدينية... الفساد... والوعي.... والثورة... والاكتشاف والخروج من الجنة!

تدخل المرأة حياة البطل في رواية "نحن" امرأة نموذجية، فهي تهاجمه بعطور لا يعرفها، وماكياج لم يره على امرأة في القبة من قبل، وزيارة الى بيت في الحارات القديمة تستأجره بعيداً عن البيوت المراقبة أمنياً، وهناك يعيش جنة المرأة والمتع الأرضية.... نبيذ معتق لم يذقه عمره، وسكائر معطرة لم يدخنها يوما، وجنس رقيق مع موسيقى، فيذوب ولا يبلغ عنها، وفي يوتوبيا زمياتين.... عدم الإبلاغ عن المخالفة لثلاثة أيام يحولها الى جناية ربما تكون عقوبتها رهيبة، ولكن الأيام تنقضي، والجنة التي عاشها خارج القبة "وهي مدينة المحسن الكبير" هذه المتع تجعله يتراخى في التبليغ رغم عزمه على ذلك، ثم تبدأ القصة في التطور، فالمرأة شريكة لمجموعة معادية للقبة ومعادية للقائمين عليها، وفي البيت العتيق هناك سرداب يؤدي الى خارج المدينة حيث

يعد الثوار للثورة، ويعيشون حياة لا علاقة لها بالقبة، ونظامها، وشرطتها، وأجهزة رقابتها..... والغريب أن زمياتين، وأورويل يتفقان وهما الاشتراكيان الخائبان، والمصران على رفض مجتمع الرقابة والشرطة، ويرفضان الخيار بين مجتمع الوفرة، و..... مجتمع الحرية، والرجلان روسي عاش تجربة القمع الستاليني المريع، وآخر هو الثوري أورويل الذي شارك وخذل في الثورة على الفاشية الأسبانية "فرانكو" ثم سمع ورأى وعاش في اليوتوبيا الستالينية حيث التقنين، فالطعام موفور رغم بساطته، والثياب الضرورية موفورة رغم خشونتها، والمدارس موفورة، والطبابة موفورة.... وكلها في الحدود الدنيا، ولكنها موفورة للفقراء، والروس كلهم صاروا فقراء..... والحرية التي صادرها الأخ الكبير ستالين، أو من يمثله من طغاة حكموا العالم الثالث منذ الحرب الثانية بإيديولوجيا اشتراكية مخابراتية مزدانة بالمعتقلات النازية الخ.

في رواية "1984" سنرى تحدي القمع الطغياني لتحريم الجنس على أعضاء الحزب إلا في زواج للاستيلاد فقط، ولا طلاق إلا بصعوبة خارقة، وهكذا نرى بطل الرواية ونستون وقد هجرته زوجه منذ سنوات طويلة لعجزه أو عجزها عن الحمل، وما كانت تتحمل وجوده في حياتها إلا من قبيل الواجب للرفيق القائد المفدى، فلما يئست انسحبت من حياته، والمؤلف يرينا تجربة واحدة للبطل مع مومس مغطاة بالماكياج، وإن أشار إلى تعدد هذه الزيارات النادرة، ولمومسات مختلفات، وسيكتشف مع النور الضعيف في غرفتها أنها عجوز درداء، ولكنه قد حسم أمره، فيكمل مهمته.

في رواية "1984" سنرى المرأة هي المبادرة، والخارقة للقانون، والمتحدية للظروف، والمخططة للعلاقة، وهو "كالعادة" ليس إلا المطيع، فها هي رغم كل التحذيرات، والكاميرات المراقبة، وأجهزة التنصت تعترض طريقه بالوقوع على الأرض مستنجدة بشهامة تقليدية في الذكر، فينظر اليها والى يدها الملفوفة بالضمادات، ويتقدم لعونها رغم كراهيته لها كمخلصة للحزب وكارهة للمعارضة، يتقدم تحت الكاميرات المراقبة وأجهزة التنصت، وبينما يقيمها يحس بشيء ينسل الى ما بين أصابعه، وهي تشكره منسحبة، وفي المكتب شديد المراقبة إليكترونياً ينتزع الورقة من جيبه، ويرميها بين أوراق كثيرة على المكتب بلا اكتراث، ثم يبدأ العمل، ويرمي في نافذة التحريق بكمية من المكاتبات والوريقات، ثم يسحب الورقة المعنية من بين أوراق أخرى وينشرها ليقرأ كلمة..... أحبك.....

بهذه الكلمة المختصرة جداً تحمله معها إلى مغامرة غير مألوفة ولا متوقعة في دولة الرفيق القائد، الأخ الأكبر... عبقري الزمان ورسول العدالة، ومشبع الشعب بعد طول جوع الخ.

في الاحتكاك اللقاء الثاني تحدد له مكان اللقاء في بيت ريفي معزول حيث لا كاميرات، ولا أجهزة تنصت، وحيث يمضي إليه بالقطار ثم ينزل في محطة تحددها، ويدور إلى اليمين كما أشارت عليه، ويمشي كيلومترين..... كانت مخططة بارعة وعاشقة حذرة، ومصممة على التغلب على الأخ الكبير والنوم مع من سيصبح عشيقها.

ويعيشان مغامرة غريبة ورائعة وحذرة في الحب المحرم إلى أن يقررا إكمال مسيرة التمرد على الأخ الكبير، فيقرران الانضمام إلى مجموعة

سرية معادية للنظام، مجموعة كانت قد قررت العودة بالبلد من دولة حرب لا تعرف من تحارب، ولا لماذا، إلى دولة سلام أهلي، وحب بشري، وعلاقات عادية، وكانا قد سمعا همساً مذعوراً عن جمعية سرية مؤلفة من أنصار المنشق "غولد شتاين" لاحظوا استخدام اسم يهودي للمعارض ما يذكرنا بمعارض ستالين الأشهر الذي قتله في المكسيك بعد سنوات طويلة لم يغفر له فيها معارضته "تروتسكي" اليهودي أيضاً.

يحدثها ونستون عن قيادي يظن أنه يعرفه، فهو يراه في الأحلام، وقد لاحظ أكثر من مرة بسمة غامضة على وجهه يوجهها إليه كلما التقيا في محاضرة له، وكلما التقيا في أحد ممرات الوزارة، وهو يؤمن أنه عضو نشط في جمعية "الإخوة" المعارضة سِرّاً للأخ الكبير، ويقرران في مغامرة انتحارية زيارته والتقدم إليه بطلب الانضمام إلى الجمعية السرية المدمرة "الإخوة".

قالت تشرح له سبب التحرش به: إنه شيء ما في وجهك أقنعني أنك لا يمكن أن تكون "منهم" وهذا ما شجعني على خوض المغامرة... إنني ماهرة في اكتشاف الأشخاص الذين لا انتماء لديهم، فما إن رايتك حتى أيقنت أنك ضدهم!! وفي مرة ثانية سوف..... تخلع ثوبها الحزبي المعادي للحب والجنس بحركة واحدة، فبدت وكأنها تدمر ثقافة وحضارة كاملة بحركة واحدة من يدها.

وأحس باختلاط العواطف لديه وهو يراقب نومها المطمئن، والبسمة الخفيفة على شفتيها، لم تعد هناك عاطفة نقية أو شهوة صرفة لقد كان

عناقهما نصراً وشهوتهما تشفياً، كانت صفعة على وجه الحزب، كانت تحدياً سياسياً بالفعل!!

يلتقيان بالقيادي المتآمر ضد الحزب والأخ الكبير "أوبراين"، ويحدثانه عن كل شيء، عن علاقتهما الجنسية، عن عش غرامهما الخفي، والمأمون، وعن رغبتهما الحارقة في الانضمام لمنظمة "الإخوة "، فهما قد وصلا إلى القناعة الكاملة ألا حل لهما وللإنسان في العالم إلا بتدمير هذه اليوتوبيا المعادية للإنسان..... ينصت أوبرايان العضو القيادي، و"الثائر على الحزب" إليهما في صبر، ويعيرهما كتاباً فيه أوراق عليها منشورات لحركة "الإخوة" فتزداد طمأنينتهما، ويعاودان زيارة الغرفة البائسة التي استأجرها وينستون في الحي القديم، ويعيشان أيام سعادة كانا يمزقان فراغات ما بين الجنس والجنس فيها بمناقشة الأفكار التي أعارها لهما... "الرفيق الثوري أوبراين".

تتشابه نهايتا المغامرتين المتحديتين للحزب في الفشل، فأوبراين الثوري المتمرد يتكشف عن ضابط أمن كبير سوف يكلف رجال الأمن بالقبض عليهما في عش الغرام، في الغرفة المستأجرة والملغمة بأدوات التنصت، وبكاميرا تسجل كل ما يقولان ويفعلان، ويحملان إلى أقبية المخابرات ليبدأ التعذيب... هذا عن وينستون وعشيقته.... ولم يكن أوبراين يطلب معلومات، فكل المعلومات لديه، وما لم يكن لديه فقد اعترفا به، وتكون ذروة السخرية وضعف الرجل حين يأتونه بقفص فيه جرذ جائع ومجوّع لأيام، ويكون التعذيب الحقيقي بأنهم سيفتحون القفص ويغلقونه على وجهه مع الجرذ.... وكانوا يعرفون بذعره المرضي من مجرد رؤية الجرذ، فما بالك وهو يعضه ويأكل من

وجهه، ولا يملك حتى التحرك والابتعاد، وحين يقاربون فتح القفص على وجهه يصرخ في توسل: لم لا تمضون إليها وتعذبونها، فهي المسؤولة عن كل ما يحصل الآن.... ويذكرنا بالتشكي الأبدي لآدم من أن حواء هي المسؤولة عن خروجه من الجنة!!!

بالنسبة لزمياتين ومدينته الفاضلة وقائدها "المحسن الكبير"، فالثورة تقوم، وفرسان البراري خارج القبة يدخلون إلى المدينة، ويتحول التهديد إلى ما يشبه التحقق، وهاهي الثورة تكاد تنجح بالقضاء على يوتوبيا المحسن الكبير، ولكن "المحسن" يستخدم أسلحة سرية لديه، ويقضي على الثورة، ثم يقبض على المتآمرين وعلى الثوار، ويكون بين المقبوض عليهم... المرأة الفاتنة المغوية و.... بطلنا .

يحكم على المرأة بالإعدام أما بطلنا فيعود إلى حياته لبضعة أيام حتى يعمم إعلان "المحسن" أن العلماء في المدينة قد اكتشفوا أن العامل الأساسي المسبب لهذه الثورة التي كادت تحرق فرح البشرية بتحقق الجنة على الأرض هو الخيال... الخيال الذي أخرج آدم من الجنة، والخيال الذي يجعل البريء يرتكب الجريمة الخ، ولذا قررت الهيئة الإدارية تعريض كل سكان المدينة طوعاً لعملية جراحية صغيرة جداً ستكون نتيجتها إزالة العضو الفاسد من الإنسان.... مركز الخيال... مركز الجريمة... ومركز الخطايا والسقوط،، ويتقاطر المتطوعون، وتعمل المستشفيات الجراحية بكامل طاقتها، ويعم الهدوء والرضا والاستسلام وجوه الناس، ويكون بطلنا العاشق الذي كادت المرأة الجميلة تسقطه في شرك الخطيئة بحق المحسن الكبير بين المهتدين الى الحل السحري... التخلص من الخيال.... وحين يحملون عشيقته

الى منصة الإعدام يأتون به ليروا ما سيصنع وهو يراها تعدم، ولكن عضلة واحدة لا تتحرك في جسده، فقد استأصل فص الخيال من دماغه... ونظر إليها تحمل إلى الإعدام ببرود... لقد نالت ما تستحق!!!!

وينستون بطل رواية، "1984" بعد شهور من التعذيب والحرمان من النوم يرى فيها أوبراين المحقق الأول معه الذي كان قد مضى إليه مع جوليا طالبين العون على الانضمام الى الحزب السري "الإخوة" بغرض التآمر على الحزب القائد، الحزب الوحيد والخالد، وكان أوبراين قد أعارهما ما قال لهما إنه كتاب غولد شتاين الخصم الفكري للأخ الكبير، والبطل الضد للثورة، والمفكر الإيديولوجي المعادي للثورة الخ، وسيقرأ وينستون الكتاب، وعشيقته تستمع وهو يقرأ عليها كتاب التمرد على الحزب والأخ الكبير.

كان الكتاب هو رأي ورؤية "أورويل" السياسية في اليوتوبيا والدول الحلم التي أصابته بالخذلان المريع، فقد كانت نقيضا لكل حلم... صحيح أن الطعام كان موجودا في المطاعم وبقروش، ولكنك إن رغبت بطعام نظيف، فعليك أن تكون غنيا لتدخل مطعما يخدمك فيه كرسون أو خمسة، ويقدم الطعام لك فيه في صحون من الصيني، وليس في صحون من المعدن "المتثني" كما في مطاعم المعالف.. الطعام الذي يمنعك من الثورة، فيكفيك دريهمات لتشبع، ودريهمات لتلبس ثيابا لا أناقة ولا جمال فيها، ولكنها تقيك من البرد، والوحل...

في دولة اليوتوبيا رأى النساء العاملات، وهن يدخلن سكرانات الى البارات يسابقن الرجال في شرب الفودكا الرخيصة، ورآهن يتطوحن آخر الليل، حيث لازوج، ولا عشيق، ولا أطفال، فإن وجد أي من هذه

فهو بالكاد يقوم بطعامه وفودكاه، وعليها أن تتدبر أمرها لو أرادت الشراب في البار، ورأى الشوارع تنغل برجال الأمن السريين الذين يمكن أن يخيفوا حتى أعتى الرجال، فمن يقبضون عليه يشحن بعد محاكمة سريعة إلى بلاد الجليد وفقدان الهوية.....

في المنزل الذي سكن فيه أورويل في موسكو، وفي الفندق الذي لجأ إليه لاحظ ان في كل غرفة مذياعاً "راديو" لا جهاز إقفال له، بل يبث لأربع وعشرين ساعة في اليوم بثاً لا خيار لك فيه، وعليك أن تسمع عن الرفيق القائد، ونضالاته وانتصاراته وانقاذاته للوطن من نير العدو النازي.... ترى هل كان هذا الجهاز هو ما أوحى اليه بالجهاز المرعب الذي سيغطي ويحكم مدينة لندن المرعبة مدينة العام 1984 الجهاز الذي يرسل ويستقبل كل حركة ونفثة تعيشها في الأربع وعشرين ساعة، أي منذ أن يوقظك الجهاز ويطاردك حتى غرفة الحمام حيث يوجه اليك النصائح/ الأوامر حول كل تفصيل من تفاصيل عمرك، فإذا ما خرجت الى الصالون غرفة النوم الصغيرة حتى القفصية، لتبدأ تمارين رياضة الصباح تحت إشراف الجهاز المراقب كمساكن لك... الجهاز الذي يطاردك أثناء تناول إفطارك البائس، ويطاردك، وعليك ان تتحايل عليه طيلة الوقت في الشارع، وعلى أبوب الدكاكين، وحتى بناية الوزارة حيث عمل وينستون في وزارة الحقيقة.

جهاز المراقبة الدائمة حلم كل الدول الفاشية كان تطويراً من أورويل لجهاز الراديو الذي انتشر في كل غرفة وممر في كل بيت في اليوتوبيا الستالينية، و..... السعادة الوحيدة التي كانت متاحة للمواطن هي في

تخفيت الصوت حتى الهمس، ولكن هذا التخفيت له عواقبه حين يسائلونك عن سبب التخفيت.

المهم.... أورويل يكتب فصلاً من أكثر من أربعين صفحة يقدم فيها كتاب غولد شتاين الذي أعاره للعاشقين أوبراين ولنرى أنه يقدم رؤيا أورويل للكابوس اليوتوبي، ومن ناحية فنية، فقد أوقف أورويل جيشان الرواية ليدس فصلاً من إيديولوجياً، لاعلاقة له بفن الرواية، وإن كان من الممكن الدفاع بأنه كان شرحاً للمسرح الذي سيودي ببطليه العاشقين وينستون وجوليا.

يخرجان بعد شهور من السجن وقد كره فيه كل واحد معشوقه، ورمى به إلى الذئاب لينجو برأسه، شهور أنكرا فيها كل حب أو كراهية، وعادا المواطنين الممسوحين من كل ماضٍ ومستقبل وذكرى وشهوة. يمضي وينستون إلى مقهى المطرودين والمعارضين والمرفوضين سياسيا "مقهى شجرة الكستناء" حيث يجلس الخارجون من المعتقلات يشربون ويتأملون ذاهلين، وينتظرون الإذن بالموت..... وتمر به جوليا، فينظر وتنظر كل إلى الآخر ببرود وكأنهما لم يلتهبا ويعشقا، ويتعبدا عند الجسد الآخر... ينظران ببرود، ويلحق بها ويحضنها في افتعال من خصرها المتصلب وجلدها الذي اخشوشن ويثرثران ببرودٍ سَئِم، وحين تتركه وتمضي يراقبها تبتعد حتى تضيع بين الحشود، فيستدير عائداً الى مقهى شجرة الكستناء لينتظر الأمر بالموت، فلم يبق له من أمل في الحياة إلا الإذن السريع بالموت، و.... يمضيان كل في اتجاه... إلى مدينة اللاحب إلا للرفيق القائد!!

كان أورويل "الروائي" بحاجة إلى هذا الحج الذي بدأه كثوري حالم بالعدل والمساواة والحلم، بدأه في أسبانيا، وكان فتى ما يزال، وكانت الحرب كفعل تطهر من الماضي الامبريالي، وهو من عاش في الهند المستعمرة من بريطانيا الامبريالية، وعاش تميز البريطاني على الهندي، ولا غرابة، فقد كان التميز يمارس كأنه الشرعي والحقيقي، والمنحة الإلهية، ولكن قراءاته كقراءات كل جيله، قراءة جيل ما بين الحربين كان يجب أن تقوده إلى واحد من الفكرين... العرقي "النازي" هذا الفكر الذي تفشا في أوربا وبعض الولايات المتحدة كالطاعون، أو الفكر اليوتوبي الرائع، "يوتوبيا الحلم" هذه اليوتوبيا التي سيحدثنا عنها المحسن الكبير سيد يوتوبيا زمياتين، فيقول: كانت البشرية في حيرة منذ فجر الخليقة، فما الهدف من العيش؟ الوفرة، وكانت موفورة في الجنة، ولكن آدم رفضها وطلب الحرية فهبط الى الأرض ليبدأ المعاناة في السعي من أجل الوفرة، وتوقف الأبناء يتساءلون، فما المرغوب إذن؟ الحرية؟ لا، فآدم لم يسغ الحرية، فهبط الى الأرض حيث بدأ العيش في حرية، ولكن مع مطاردة الكفاية، التي أبداً لم تتحقق!

وعاد السؤال، فما المطلوب: الحرية أم الوفرة؟ وكان آدم قد أعلن أنه يريد الحرية، فقذف الله به إلى الأرض ليعيش الحرية، ولكن كان عليه أن ينهك ويرهق وينخ، أمام لقمة العيش العاصية له ولأولاده، وتحولت الشهوة من جنة الحرية إلى جنة الوفرة... أن تجد طعامك وشرابك سهلا دون معاناة للحصول عليه، وكانت الثورات تطلب الخبز، تطلب الوفرة حتى إذا ما وصلت الى الخبز ثار فيها الحنين إلى الحرية، فإذا ما وصلت إلى الحرية طلبت الخبز، وما بين هذين القطبين عاش بنو آدم!!

ويضيف المحسن اليوم ضمننا لكم الخبز والحرية، فاسعدوا، وكانت هذه المحاضرة الطويلة من زمياتين وعلى لسان "المحسن الكبير" هي الجدل اليومي لضحايا الجنة الستالينية.

القرن العشرون هو قرن المحاولات المتطرفة للحصول على اليوتوبيا، وهو قرن الهزائم الكبرى للأحلام البشرية أيضا... والمحاولات الثلاثة "نحن" و"عالم طريف شجاع" و"1984" والبعض يضيف المحاولة الأميركية المتأخرة من راي برادبوري "450 فهرنهايت" إلى تصور هذه الخيبات الإنسانية من غلبة الوحش في الإنسان على المصلح، والمحسن، والرسولي!!!

من وجهة النقد المقارن يمكن لنا ملاحظة تقدم زمياتين على كلا الكاتبين التاليين له وتأثيره الصارخ فيهما "هكسلي وأورويل" فزمياتين أسس للخيبة، وهي موتيف أساس للعملين الروائيين الآخرين في قدرة الإنسان على تجاوز تقدمه الشامل لتاريخه الحجري، والفلاحي، والبروليتاري.... الموتيف الثاني هو الجنس... فهو المشكل الأكبر أمام تحول الإنسان إلى ملاك أو ضيف في جنة "عالم طريف شجاع" والإخصاب وهو المشترك الأعظم بين الحيوان والإنسان وهو وسيلة استمراره وبقائه، وقد حل "هكسلي" المشكل المشترك بين الجنس كمتعة، وبين الإخصاب الناتج عنه كضريبة... في الفصل الصارم بين الجنس كمتعة تشبه رياضة التنس مثلا تقوم ويقوم الآخر به بعد تعاطي اللبان، المنشط الجنسي، وتستمتع حتى النهاية، ولكن دون مصاعب الإخصاب.

أما الإخصاب وهو عمل الدولة فقط، فقد تقدم به هكسلي على الطريقة الارستقراطية البريطانية.... معامل... ومدارس.... وطبقية صارمة، ومن أجمل ما قرأت كان لهكسلي حين يسأله البري/ الهمجي وهو من رُبِّيَ خارج مؤسسة المعامل: فإذا كنتم تستطيعون إنتاج القادة، والمخترعين والعلماء في المعمل وعبر الأوكسجين المعطى لهم في طور الأجنة، فلم لم تستولدوهم جميعاً سادة مثقفين موهوبين؟ ورد المدير والغريب أنه يحمل اسماً عربياً هو مصطفى، فقال: جربناها مرة، وأنتجنا جيلاً من العباقرة بمئة ألف مولود، ثم أفرغنا لهم جزيرة قبرص من سكانها واستضفناهم فيها، وغبنا عنهم سنة كاملة، رجعنا بعدها لنرى نتيجة التجربة، فوجدنا من تبقى منهم حوالي 300 رجل وامرأة، وسأل البري: والباقون؟ قال: لقد ظلوا في حرب على الرئاسة لسنة كاملة تفانوا فيها حتى لم يبق منهم إلا هؤلاء الثلاثمائة..... اتعظنا بعدها، وعرفنا أن الحياة تحتاج الى العبيد، وإلى المدراء، وإلى السادة، هذا الرأي لا يجرؤ فرنسي على الجهر به، فهذا الرأي الأرستقراطي يجرؤ على إعلانه أريستوقراطي كهكسلي فقط.

أما لدى أورويلوزمياتين فسنرى التفسير التوراتي لفشل الإنسان في البقاء في الجنة، فهذا الـ 503 تسقطه امرأة وتخرجه من جنة المحسن الكبير، وهذا اورويل يقدم لنا المصير نفسه في ونستون بطل 1984، والمرأة تسقط وينستون بكلمة ساذجة تتجرأ وتدسها في يده وعليها مفتاح سقوط ذكور العالم في معظمهم، فمن هو الذكر الذي يقاوم إغراء كإغراء جوليا تدس بيده ورقة كتبت عليها "أحبك "، ولكن الإله الأرضي المخابرات "الأخ الكبير"... ما تلبث أن تقبض على العاشقين

وتعذبهما، وتريهما خطيئتهما حتى يتنكرا لعشقهما، ويضحيا كل بالآخر لينجو من التعذيب، و.. يطردان معاً من الجنة في انتظار السقوط/ الاختفاء من دفاتر الأحياء.

هكسلي لم يخرج عن التقليد في إخفاق التجربة... تماماً كما فعل سابقاه "زمياتين"، ولاحقه "أورويل".. فدمر جنة الوفرة، دمرها على يد مخلوقه البري "جون".. الذي لم ينشأ في معاملهم الإنسالية "من الإنسال"، ولم يرب في معاملهم التعليمية يستمع إلى أشرطة التسجيل تبث علم المجتمع الجديد على أدمغتهم الطفلة، وعاش وكبر، في المجتمع البري الذي لم يخضع لحضارة الوفرة.

في القرن العشرين عاشت البشرية مغامرة صنع المستقبل من.. مستقبل.....عرقي... فاشي... ونازي، ولكن سرعان ما تخلص العالم منهما بهزيمتهما والتحول إلى مجتمع الاشتراكية التي حكمت بعد الحرب العالمية الثانية أكثرمن نصف العالم، ثم.... سارع التشقق، والشيخوخة إليها لتسلط الحزب على المجتمع، والقائد على الحزب، والفساد على الجميع، وبقيت الخيبة والمرارة، والأدب!!

خيري الذهبي ..... بين اليوتوبيا العريق، والكابوس العميق.

القيت هذه المحضرة في الجزائر، مؤتمر الرواية 2006.

شدة القرب حجاب، أو هذا ما قاله الصوفي الكبير نزيل دمشق محي الدين بن عربي. وهذا صحيح إلى حد كبير جداً، فحين تعايش الإنسان أو المكان لزمن طويل تفقد الدهشة من محاسنه ومعاجبه، بل ربما مساوئه، فالاعتياد قاتل للدهشة.

أقول هذا وأنا ابن دمشق، وابن الجامع الأموي والزائر المداوم لمحاسنه، ولكني لم أكتشف المعجزة الموجودة فيه إلا فجأة رغم معايشتي الطويلة له، فأنت حين تدخل الجامع الأموي وتتجه إلى ضريح النبي يحيى سترى الموحدين الدروز بأزيائهم الخاصة يقفون أمام الضريح يؤدون له دعواتهم ونذورهم، وسترى إلى جانبهم مباشرة المسلمين السنة يقفون أمام الضريح يؤدون نذورهم وقراءة فاتحتهم، وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء سترى مسيحيي العالم بكل طوائفهم ومذاهبهم يقفون أمام الضريح يصلون ويؤدون نذورهم ليوحنا المعمدان الاسم الآخر للنبي يحيى، وستدهش ولكنك إن خرجت إلى باحة الجامع نفسه سترى المسلمين الشيعة الإثني عشرية وهم يؤدون طقوسهم ونذورهم وأدعياتهم عند مشهد رأس الحسين عليه السلام. وفجأة لن يعود الأمر مدهشاً، بل مذهلاً، فها أنت أمام مشهد لا يمكن لك أن تراه في أي معبد آخر في العالم، لا في الفاتيكان، ولا في الأزهر، ولا في قم. وعندها ستعرف إصرار الشاميين (بلاد الشام) على تسمية هذا الجامع بالجامع وليس بالمسجد. أنا أعرف أن بعض

المتفيقهين سيردون علي بالتمييز بين الجامع الذي يحمل شروط إقامة صلاة الجمعة فيه وتميزه عن المسجد الذي لا يحمل شروط صلاة الجمعة فيه، ولكن لا. فالشاميون يسمون الجامع الأموي بالجامع. إنه معجزة جمع الأديان والمذاهب جميعها في معبد واحد، إنه قبول الآخر، وقبول التعدد وعدم رفض الآخر. إنه تراث بني أمية الذين دخلوا إلى مدينة يغلب على سكانها المسيحية، فتآخوا وتحابوا، وأعادوا إلى المدينة تعددية الفترة الذهبية الرائعة في تاريخ البشر وأعني الفترة الهيلنستية، فترة حكم ورثة الاسكندر الكبير، السلوقيين.

وتعالوا نقرأ التاريخ معاً، فالتاريخ لم يعرف شعوباً احترمت فاتحها قدر احترام سكان الشام ومصر لفتح الاسكندر لبلادهم وتخليصهم من الطاغية داريوس، ويقول الكاتب الفرنسي (بول روسي) في كتابه ((مدينة إيزيس، أو التاريخ الحقيقي للعرب)): إن حملة الاسكندر الكبير ضد الإمبراطورية الفارسية لم تكن حملة خارجية قدر ما كانت انقلاباً داخلياً ضمن الثقافة الآرامية نفسها، التي كانت تسود فارس واليونان ومقدونيا معاً، لذا لم تكن هنالك مقاومة للجيش المقدوني في تقدمه حتى الهند، فالآراميون وهم الأجداد الأصليون لبلاد الشام أنتجوا معجزات ثقافية كبرى منها نشر لغتهم الآرامية في العالم القديم كله، ولكنهم لم يستطيعوا أبداً إقامة دولة موحدة مركزية، فأقاموا دويلات المدن الكثيرة، آرام دمشق، آرام حماة، آرام صوبا، ويمحاض.. إلخ.

يتذكر الشاميون الفترة السلوقية باعتزاز، ففي تلك الفترة تم التمازج بين الحضارتين الشامية = السامية، والحضارة الهلينية، فتشكلت معجزة الحضارة الهيلينستية، أو الهيلنية الشرقية تلك التي أنجزت

أعظم فلاسفة ومفكري وشعراء وكتّاب العهد الكلاسيكي الشامي، ولنذكر منهم الكاتب الكبير جداً لوقا أو لوقيانوس بصيغته اليونانية من مدينة سميساط، ولنذكر ميلياغروس من مدينة جادارا الجولانية، ولنذكر أبوقراط، ولنذكر فلاسفة أفاميا الاشراقيين.

عاش الشرق فترة من التآخي والديمقراطية الجميلتين لعدة قرون، حتى جاء البسطار اللاتيني (روما) فغيّر كثيراً من بنود المعادلة، ولكن الشاميين بعبقريتهم الخاصة اخترقوا البسطار اللاتيني وحصلوا على حق المواطنة حين أنشأوا تحالف الديكابوليس وأرسلوا عدداً من الشاميين أباطرة إلى روما، ثم جاءت المسيحية، الدين الشامي العظيم الذي كافح حتى انتصر وصار دولة، ولكن بيد اللاتين، ثم البيزنطيين، وعند تحوله من دين البسطاء إلى دين الدولة دخل العالم نفقاً جديداً، فالحرب العنيفة التي شنتها المسيحية الدولتية على الوثنية السابقة من تدمير للمعابد ومن قتل للفلاسفة، ومن حرق للمكتبات، لم يلبث أن تحوّل إلى كابوس، وخاصة بعد أن أقرت الدولة قانوناً خاصاً للإيمان هو القانون الخلقيدوني، وبدأ الاضطهاد ضد المذاهب المسيحية الأخرى اليعقوبية في مصر والشام، النسطورية، الآريوسية، المرقيونية إلى آخر تجليات الفكر المحلي المتحدي للمركزية الدولتية، وحين بدأت الاضطهادات صار الناس يحنون إلى الزمن الهلينستي الجميل، وعند تلك المرحلة خرج الحجازيون بالإسلام من الجزيرة العربية.

قبل خروج الإسلام من الجزيرة كانت الدولة البيزنطية قد أنهكتها حروبها ضد البلغار وضد السلاف وضد الفرس الذين احتلوا الشام، وعن هذا الاحتلال يحدثنا القرآن الكريم في شماتة القرشيين الجاهليين

بمحمد (صلعم) حين قالوا له: لقد هزم أصحاب الكتاب أي المسيحيون على يد الفرس، وهذا برهان على أن الوثنيين يعنون أنفسهم مع الفرس هم الأجدر من أصحاب الكتاب يعنون المسيحيين والروم. فنزلت الآية القرآنية تقول: "غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين" وهذا ما حصل، فلقد انتصر الروم على الفرس وطردوهم من الشام، وأعادوا احتلال الشام.

ما يعنينا من هذا كله هو ما الذي حصل للشام التي أنهكها الاحتلال البيزنطي فالفارسي، فالبيزنطي، ولا حل في الأفق، ولا أمل في استعادة الاستقلال، واستعادة الديمقراطية الهيلنستية، والانفراج، والتعددية وقبول الآخر.

كان رئيس مدينة دمشق الإداري والمالي عربياً أو يكاد من تغلب، وهي بطن من قضاعة اسمه سرجون بن منصور، هذا الرجل دفع الخراج لفارس المنتصرة، وكان مئة ألف دينار، ولما انتصر هرقل البيزنطي على فارس طالب سرجون بن منصور بالخراج مئة ألف دينار، فلما احتج بأنه قد سبق أن دفعه للمنتصر الفارسي الحاكم السابق رفض هرقل، وأصر على استيفاء الخراج الملكي، ودفعه سرجون على كره ومضض، وفجأة وصل الحجازيون المسلمون.

ترى كيف استقبل مسيحيو الشام هذه الهجمة الجديدة غير المتوقعة. أكانوا يعتبرونها غزوة ارتزاقية بدوية مما يحدث بين الحين والآخر، أم نظروا إليها على أنها امتداد لتجربة زنوبيا في تدمر والأنباط في سلع ومدائن صالح في محاولتيهما لاستعادة الاستقلال الشامي عن

الغازي الذي لم يعد هيلنستياً ديمقراطياً، تعددياً، بل جابياً قاسياً، ومحتقراً للشعوب التي لا تنتمي للهوية نفسها؟

هل كانت القبائل العربية المنتشرة في الشام من بكر وتغلب، وكلب، وغسان تحس بالانتماء القومي والتشارك مع الحجازيين بأكثر مما تحس بالتواصل مع بيزنطة المسيحية، ولكن الظالمة والمستكبرة قومياً؟ هل كانت هناك علائق قوية بين الأمويين التجار التاريخيين والمترددين بكثرة على الشام تجارياً وثقافياً، شعراء ورواة؟ هذه العلاقات جعلت الأمويين يدركون أشواق الشاميين إلى تلك الفترة الزاهية حين كان بنو البشر متساوين أمام القانون والسماء إلا في الكفاءات والعطاءات الذهنية والعقلية، فقربت فيما بينهم بحيث حينما وصلوا (الأمويون) إلى الحكم استعادوا تلك الفترة الذهبية (الهيلنستية) إلى الشام. استعادوها بقبول الآخر، والتعددية، والتعامل مع مسيحيي الشام إخوة عرباً، وأقرباء في الدين، فاستمالوهم وقربوهم وجعلوهم كبار الإداريين، وكبار الماليين، وكبار الدولة. فضموهم إلى الجيش، وجعلوهم (أي نصارى الشام) يدربون الجيش الشامي والحجازي على وسائل الحرب وتنظيم الجيوش على الطريقة الرومانية – البيزنطية بديلاً عن الاندفاعات الشجاعة المؤمنة، ولكن البدوية لا تعرف فن الكراديس والكتلة المدببة للكتائب المقاتلة. ولا تعرف النار الإغريقية التي سيستخدمها الأمويون في غزوهم لقبرص، ولرودس، وللقسطنطينية فيما بعد، ثم شمال إفريقيا، فإسبانيا.

ما يحدثنا عنه التاريخ هو أن الجيش المسلم والبيزنطي حين تقابلا في اليرموك أو في معركة الياقوصة، أو الواقوصة أن القائد البيزنطي

باهان قد طلب إلى مدير مدينة دمشق الذي تحدثنا عنه قبل قليل سرجون بن منصور، أن يدفع رواتب الجند الذين سيحاربون في اليرموك، فاعتذر سرجون وأصر باهان، فوعد سرجون بتدبر ما يمكن تدبره.

توقف الجيشان متواجهين منتظرين غفلة أو سانحة كل من الآخر، وفي الليل سمع الجيش البيزنطي صراخاً، ودوي طبول، ونعيق أبواق، وروميض نيران من خلفه. لقد كان سرجون بن منصور ومعه أهالي دمشق يحملون كما يدعي أجور الجند الروم.. ولكن، أيقوم من يحمل رواتب الجند بهذه المفاجأة الليلية.

هذه الرواية التي يذكرها مؤرخ هو ابن العميد ويرويها مؤرخ هو ابن البطريق، ربما لا تتفق مع كثير من الروايات الإسلامية، ولكنها جديرة بالرواية.. سمع البيزنطيون هذا الضجيج، فظنوا أن كميناً للمسلمين قد كبسهم من الخلف ليقعوا بين فكي كماشة المسلمين من الأمام والخلف، فاندفعوا في الليل ليقعوا في منخفض الواقوصة وبذا انتهت معركة الروم في سورية.

ما يهمنا من هذه الرواية التي ربما كانت صحيحة هو أن الشاميين قد سئموا من البيزنطيين وفتحوا صدورهم لأبناء عمهم من الحجازيين، وفتحت الشام، وطرد الروم وبدأ عهد جديد من التاريخ.

ما يهمنا من كل ما ذكرنا هو هذا التآخي العظيم الذي قام بين نصارى الشام ومسلمي الحجاز، هذا التآخي الذي أنتج التعاون بين الإيمان والإدارة، وجعل معاوية يتزوج من ميسون بنت بحدل المسيحية الكلبية، التي أنجبت له الخليفة الثاني يزيد بن معاوية، وجعلت من

سرجون بن منصور، ثم منصور بن سرجون، ثم سرجون بن منصور سلالة من الإداريين العظام الذي ساهموا في بناء الدولة الأموية، وجعلت من هذا التعاون تراثاً لدمشق ها نحن نرى جمالياته في (الجامع) الأموي الذي جمع الأديان والمذاهب في معبد واحد، الكل فيه يعبد الله، ولا مكفر من أحد لأحد ولا رافض من أحد لأحد، فدمشق أم الجميع والجامع الأموي جامع العباد جميعاً.

ألقيت هذه المحاضرة عام 2009 في الجمعية الجغرافية السورية في دمشق.

دمشق بين ثنائية راقصات الأمفورا والتوسيط المملوكي .....

حين رأيت تلك الجرار المسمّاة بالأمفورا، وعليها رسوم لنساء جميلات يرقصن رقصاً أشبه بالطيران، رقصاً يندفعن به إلى الأعالي، فلا يتبقى ملتصقاً منهن بالأرض إلا أصابع تكاد تلمس الأرض. هاته الراقصات اللاتي عرفت أن اسمهن بالآرامية كان الأمبوبايا، أو الراقصات مع الأمبوبة، أو الأنبوبة بلغتنا المعاصرة، أو الناي بصيغتها الفارسية التي التصقت بلغتنا.

حين رأيت تلك الراقصات وحملت صورهن معي إلى البيت أتأمل تلك الفتنة وذلك الفرح على وجوههن، تساءلت: أعوذ بالله، فأين مضى كل ذلك الفرح، وكل ذلك التعلّق بالحياة، وتلك البهجة، وتلك الرغبة في الطيران إلى السماء. أكان ذلك النزوع إلى الطيران محاولة للاندماج في الطبيعة، للطيران مع الحساسين والشراشير والشحارير، وطيور الشام المغردة؟ أم أنها كانت محاولة صوفية للاتصال بالمطلق؟ أو كما سوف يفعل المولوية بعد قرون حين يرقصون، ويرقصون ويدورون حول أنفسهم مغمضين عيونهم ينتظرون تلك اللحظة التي يخرج فيها الأثير من الجسد متحوّلاً إلى روح تاركاً الأرضي مجبراً على الالتصاق بالأرض برؤوس الأصابع يدور ويدور، فالدوران فقط هو ما يطلق ذلك الأثير الجميل الحالم أبداً بالطيران.

حين طلع عليّ الصبح المبكّر، وأنا أتأمّل تلك الأمبوبايات في انسحار كنت أتساءل: في أية بيئة عاشت تلك النساء، وأي رجال كانوا المحظوظين والسعداء أنَّ لهم مثل هذه النساء، كان من الواضح أنهن كن يعشن عيداً ما، عيداً يرقص فيه الجميع، ولكن لم الرقص، وما مناسبة الاحتفال. أهو الفرح بانقضاء الشتاء وثلوجه، وبرده، وقدوم الربيع بخضرته ودفئه وزهوره، وحلول سعد الخبايا الذي تتفتل فيه الصبايا، والصبايا بلغة الشوام (بلاد الشام) قد تعني النساء الفتيّات، وقد تعني الحيَّات، ففي ذلك السعد، أو ذلك الموسم من الربيع يدفأ التراب وتخرج الحيَّات من أوكارهن السباتية، ولنلاحظ الجذر اللغوي المشترك بين الحوَّاءات، أو الحوَّايات والحيَّات.

كانت دمشق بحيرة كبرى تمتد من الزبداني وحتى مرج السلطان، ومن جبل الشيخ وحتى بحيرة العتيبة، ولكن ذلك كان قبل جميلات الأمبوبايا، ثم غارت البحيرة وتركت مستنقعات وبركاً، و.. نزل آدم وحواء. والشاميون يعرفون أين نزل آدم وأين نزلت حواء.. بل أين قتل ابنهما قابيل أخاه هابيل، وما يزال موقع مقتل هابيل ينز بالدم.

واستصلح الشاميون أو الذين سيسمون فيما بعد بالشاميين المستنقعات والبرك وزرعوا الأشجار، وزرعوا الثمار، وصنعوا جنة يستعيضون بها عن الجنة التي طرد منها أبواهم، وأجمع القدماء من رحالة وجغرافيين على الموافقة على رأي الشاميين في أن الشام واحدة من أربع جنان في الدنيا، فياقوت يقول على لسان أبي بكر الخوارزمي: جنان الدنيا أربعة: غوطة دمشق، وصغد سمرقند، وشعب بوَّان وجزيرة الأبلَّه عند البصرة، وقد رأيتها كلها، وأفضلها دمشق.

ثم يقول ياقوت: وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها.

المهم، صنع الشاميون جنَّتهم البديلة، ولكن كما كان لجنَّتهم الأولى عدو وهي الحيَّة، فقد كان لجنَّتهم الثانية عدو وهو مدن الواحات ومحطات القوافل الأخرى، والعجز عن تشكيل الدولة الموحدة، وكان عليهم دائماً أن يواجهوا عدواً جائعاً يخترق إليهم الصحارى ليأكل ما أنتجوه؛ الشجر والثمر والخضرة، ويقتل النساء والأطفال والمقاتلة.. فسمَّوا عدوهم هذا القادم من صحارى آسيا العميقة دائماً بيأجوج ومأجوج. إنه قوة الدمار المطلق الذي لا يشتهي إلا عودة الواحة إلى الصحراء.

في آسيا حضارتان عظيمتان: الهند وهي حضارة مسالمة منذ اللحظة الأولى، فلم يعرف عنها أنها غزت أمة أخرى خارج حدودها قط، والصين وهي حضارة معتزة بنفسها، مستقلة بجنتها وهي ما إن اكتمل تشكلها الحضاري حتى أخذت تنشئ سداً تعزل نفسها فيه عن.. يأجوج ومأجوج؟ أتراهم كانوا الخطر حتى على الصين.

في كتاب القزويني ((عجائب المخلوقات)) حكاية عن رحالة مسلم أرسله الخليفة العباسي ليستكشف له سدَّ يأجوج ومأجوج، فلما وصل إليه ومن المعتقد حسب ما يصفه أنه قد وصل إلى سد الصين العظيم. هذا الرحالة يحدِّث عن يأجوج ومأجوج وراء السد وهم يعوون ويهدرون على أمل انهيار السد بعوائهم الطويل ليخرجوا إلى العالم الذي حرمهم من خرابه ذو القرنين حين بنى السد من صخر لحمه

بالنحاس: آتوني أفرغ عليه قطراً. الآية، أي أذيب عليه النحاس ليتماسك.

هؤلاء اليأجوج والمأجوج المحبوسون وراء السد قد يراهم الرحالة أحياناً يقفون أعلى السد يراقبون العالم في حسرة، وقد تهبُّ ريح عاصفة، فتقتلع أحدهم وترميه خارج السد ليموت ويراه الرحالة. إنه أعجوبة من أنياب وأضراس وأذنين عظيمتين واحدة غطاء يتغطى بها، والأخرى وطاء يفترشها، ولكن لم يحظ قط واحد من الفانين بلقاء هؤلاء اليأجوج والمأجوج مباشرة، وهذا طبعاً صعب الحصول لأنه ما من أحد لقيهم وعاش بعدها ليروي ما رأى، فسيكونون قد مزقوه حياً.. وهكذا استمرت حكاية هذه الـ.. مخلوقات حكاية تروى دون شهود.

أما في التاريخ الموثق، فالتاريخ يحدث عن دولة كبرى نشأت في بلاد ما وراء النهر كان اسمها خوارزم، وكان يحكمها حاكم طموح هو جلال الدين منكوبرتي، والدول الناشئة في تلك الأيام كانت تطمح دائماً إلى التحول إلى إمبراطوريات، ولكن سوء حظ جلال الدين هذا هو أن دولة أخرى نشأت إلى الشرق والشمال منه، وكانت تطمح إلى التحوّل إلى إمبراطورية، هذه الدولة كان يرأسها رجل اسمه تيموجين، وسيسمى فيما بعد جنكيز خان.. ما بين هاتين الدولتين كان هنالك شعب مستقل صارم لا يسمح لأحد بالاحتكاك به هم شعب الخِطا، وكان الجميع يسالمونهم تحاشياً لقدرتهم على الدفاع المستميت. أرسل جنكيز خان قافلة تجارية إلى خوارزم، فاعتبرها جلال الدين طليعة جاسوسية وربما كانت، فاستولى على القافلة، وقتل تجارها، وغضب جنكيز، ورفع رأسه إلى السماء يشكو ظلم واعتداء جلال الدين.. وهكذا خرق

جنكيز حرمة الخِطا ودخل إلى خوارزم وهزم جلال الدين وما زال يلاحقه حتى دمر دولته، وصار في خاصرة العالم الإسلامي.. وهكذا وصل يأجوج ومأجوج إلى بلاد الشام التي كان رعبها هؤلاء الوحوش وكانت مطمئنة من قبل إلى أنَّ سدّ ذي القرنين يقف حائلاً بينهم وبين جنة الله في الأرض، الشام.

قبل حوالي اثنين وعشرين قرناً كان رجل مقدونيا القوي الاسكندر قد قضى على سيد العالم في حينها داريوس وعَبَر بلاد الشام، ففرحوا لابتعاد البسطار الفارسي عن رقابهم واستقبلوا أرسطو بفرح استقبال الاسكندر، وهكذا تشكل ذلك الزواج الفردوسي المسمى بالهيلينية الشرقية، الهلينستية التي ستنتج أعظم عقول ومواهب اليونان والشرق الشامي مثل لوقيانوس السميساطي وميلياغروس من جادارا وبوسيدانيوس من أفاميا، وأنتيباتر من صيدا، وزينون الرواقي الصيداوي، وفي ذلك الحين انتشرت مقولة ميلياغروس العالمي المبكر: إذا كنت سورياً، فما الغريب في ذلك.. أيها الغريب، يا ابن العالم. فنحن نقطن قرية واحدة هي العالم.

في ذلك الزمان نحت فيه لوقيانوس أو لوقا بصيغتها السورية من سميساط، تماثيل لحدد، ولبعل، أو لزيوس وأبولو.. ولكن حسن حظ الأدب شاء أن يكسر لوقيانوس قطعة من المرمر الثمين أثناء تدريبه فيغضب خاله الذي هو في الوقت نفسه مدربه، ويطرده، وهكذا يتخلى لوقيانوس عن النحت ليصبح الكاتب العظيم الذي ستفخر به كل الآداب الكلاسيكية في العالم ما عدا شعبه الذي انفصل عن تراثه المكتوب

باليونانية لغة العصر رغم إصراره وترداده مقولته الشهيرة: نحن السوريون. ونحن من كتب، وفعل و.. إلخ.

في ذلك الحين رسم الرسامون والمزخرفون صورة الأمبوبايا على جرار الأمفورا، فنقلوني مباشرة إلى ذلك العهد الجميل، لكن المؤلم أنه في زمن قريب جداً من فرحتي بصورة الأمبوبايا رأيت مجموعة من النساء في تدمر يلبسن السواد، ويقمن حلقة تشبه حلقة راقصات الأمبوبايا، ويدرن على رقابهن ما يشبه الشيلان ويرقصن رقصة إيقاعية، واقتربت منهن لأسمع العويل وأسأل فأكتشف أنهن الندابات المحترفات يندبن مأجورات ميتاً مات.

وعدت إلى كتب التاريخ أستقرئ تاريخ المنطقة لأكتشف أن تاريخها كان موزعاً دائماً ما بين راقصات الفرح والبهجة والاستمتاع بالحياة وما بين الندابات يندبن ويبكين مقتل الفرح على يد قوى الدمار والتي اصطلحوا منذ القدم على تسميتها بيأجوج ومأجوج.

ولإلقاء بعض الضوء على هذه الثنائية سأقوم بدراسة كتابين كتبا خلال مئة عام تقريباً: الأول هو ((الدرة المضية في الدولة الظاهرية)) وهو لمؤرخ شعبي دمشقي هو محمد بن محمد بن صصرى، ويغطي السنوات ما بين 791 هـ وحتى 799 هـ أو 1389 – 1397، ولنذكر أن غزوة تيمور المشؤومة قد تمت في العام 1403م.

أما الكتاب الثاني فهو "نزهة الأنام في محاسن الشام"، وهو لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري الدمشقي، والرجل عاش في القرن الخامس عشر ميلادي، ولد في العام 847 هـ أو 1443 م، أي بعد غزوة تيمور

بأربعين عاماً، وتوفي العام 894 هـ أو 1489م، ولنفترض أنه قد وضع كتابه هذا لنقل قبل وفاته بعشرة أعوام أي بعد غزوة تيمور المدمرة، ببضع وسبعين عاماً أي في زمن لم تنس فيه المدينة بعد كارثة الغزوة التيمورية التي لم تكتف بالحرق والنهب والغصب والتدمير، بل أخذ تيمور معه إلى سمرقند العقول والعلماء الشاميين والأيدي من رخَّامين ونحّاتين ونقَّاشين وسيوفيين وحدادين ونحاسين، أي كل من يصنع الحضارة، ومع ذلك فها هو البدري يعيد للأمبوبايا أمجادها في كتابه.

فها هو يحدث عن مدينة تقيم أعياداً لموسم زهر السفرجل، كم واحداً فينا رأى أصلاً زهر السفرجل، ولكن أبناء وبنات الأمبوبايا وزَّعوا أعيادهم على مواسم الزهر، فعيد لشقائق النعمان، وعيد لأزهار الدراق، وعيد للنيلوفر، وعيد لزهر البان والأذريون.. .. ولكني وحتى لا أتعجل الفرح في الحديث عن مدينة الفرح سأبدأ الحديث عن كتاب ابن صصرى الذي سبق كتاب البدري بما يقارب السبعين سنة، أما كتاب البدري فقد سبق غزوة سليم العثماني ببضع وثلاثين سنة، وهي الغزوة التي سيعلق عليها مؤرخها ابن طولون: وكانت مصيبة الشام بالخنكار أي السلطان سليم لا تقل عن مصيبتها باللنك أي تيمورلنك.

ابن صصرى صاحب كتاب "الدرة المضية في الدولة الظاهرية" مؤرخ مجهول، فليس لدى كتب التراجم عنه ما يضيء حياته، وليس فيما وصلنا منه وأعنى كتابه هذا ما يكشف لنا عن منبته وثقافته، ومهنته، فالكتاب الذي يقدم لنا صورة شامية عن الفترة المملوكية بعد أن مضى أقوياؤها قطز، وبيبرس وقلاون، وعاشت زمناً تحكم من قبل

أطفال وغلمان يتخفّى وراءهم أقوياء الزمان من المماليك الذين يسمون بالأتراك، وأنا أعتقد أنهم كانوا من المغول، أو أقربائهم، فأسماؤهم يغلب عليها الصيغة المغولية، ولنتابع اسم (بغا) وكم يتكرر فيهم: قطلو بغا، ويلبغا، وكمشبغا، وأسنبغا، وتنكز بغا، وألطنبغا، وأردبغا، وطولو بغا، وأسلبغا، وأقبغا وآلابغا.

ولنذكر أنَّ اسم القائد المغولي الذي هزم وقتل في معركة عين جالوت كان كتبغا، وأن أحد الأسرى من المغول في موقعة حمص كان اسمه أيضاً كتبغا، ثم بعد حوالي ثلاثين سنة، صار هذا العدو الأسير سلطاناً على مصر والشام، وتسمى باسم الملك العادل. وهذه واحدة من النكات الكبرى في التاريخ.

أما الرجل الذي أسقط الدولة العباسية وقتل آخر خلفائها ودمر عاصمتها، فقد عرف في التاريخ العربي باسم هولاكو، ورغم أني قد قرأت عدداً كبيراً من كتب تاريخ تلك الفترة، فلم أجد لهذا الاسم شبيهاً بين أسماء المغول، وأنا أعتقد أن إيقاع الاسم القريب من الصيغة العربية هلاك قد أغرى المؤرخين العرب بتبنيه إلا أن مؤرخنا ابن صصرى يسميه هلاكون، أما كتَّاب سيرة الملك الظاهر الشعبية فيسمونه هلاوون فإذا ما عرفنا أن الروس لا ينطقون حرف الهاء بل يقلبونها مباشرة إلى كاف فارسية، وتصورنا أن صيغة هلاوون كانت كلاوون أفلا يحق لنا أن نتخيل أن الاسم الأصلي كان قلاوون؟

وابن تغري بردي وهو مؤرخ مملوكي من ((أبناء الناس))، أي من أبناء (الخاصة) المماليك لأن الرعايا من العرب كانوا يسمون بالعوام.

ابن تغري بردي هذا قال مع بعض تهكم خفي: وأبناء العرب لا يعرفون نطق الأسماء التركية فيحيلونها إلى ما يقاربها من العربية.

وما يهمنا من كل ما سبق هو الإشارة إلى أن من يسمَّون بالمماليك الأتراك كانوا إما من التتار/ المغول، وإما من إخوتهم وأبناء عمهم أي من أولئك الذين سعى الشاميون إلى ذي القرنين يرجونه إقامة سد يحجزهم عن مدن الحضارة. فأقام السد، وحمى مدن الحضارة والجمال لقرون إلى أن قام جلال الدين حاكم خوارزم بنقب السد، فاندفقوا مع جنكيز خان وهولاكو، ثم مع من أسلم منهم مثل بركه خان وخدابند، وقازان، وصولاً إلى تيمورلنك.. بتمزيق المدن وإحراق المعابد والمساجد، ونهب الثروات والعقول، ولنذكر أن السيد تيمور بعد أن نهب ودمَّر العالم الإسلامي الشرقي كله تقريباً، أقام مدناً وضواحي حول سمرقند أسماها دمشق وبغداد ومصر وشيراز، فهو لم يكتف بنهب العالم الجميل ثروات وعقولاً وأيادٍ، بل تمنى وإن لم يستطع أن يحمل مع منهوباته مدن الحضارة إلى صحارى آسيا، فنسخها هناك مدناً مبنية على طراز مدن العالم القديم وأسمائها، واستقدم إليها حتى علماءها وصنَّاعها والنخبة من أهلها.

ونعود إلى "الدرة المضية في الدولة الظاهرية" لابن صصرى والظاهرية نسبة إلى الظاهر برقوق، هذا المملوك الذي نقل الحكم من المماليك الذين سماهم مؤرخو تلك الفترة بالأتراك إلى المماليك الشراكسة، ولما كان هذا النقل غير مقبول من أقوياء تلك المرحلة، فلم يلبثوا أن ثاروا على برقوق رغم دهائه الخارق وبطشه الهائل، ولنتابع ذلك التاريخ الجميل، فلقد قتل السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن

محمد بن قلاوون، وكان له من العمر حين قتل أربعة عشر عاماً (هذا الرقم مشكوك فيه)، فجاؤوا بابنه علي بن شعبان فسلطنوه، وسموه بالسلطان المنصور، واختفى وراءه أقوياء كان من أشهرهم أينيك الذي قرَّب برقوق فخرج به من مرتبة الجندي إلى إمرة الطبلخاناه (وهو القائد العسكري الذي يسير وأمامه عازفو الطبل ليزيدوه فخامة)، وهكذا بدأ ظهور نجم برقوق إذ سرعان ما سيشكل مجموعة من خشداشيته (أولاد دورته العسكرية في التعبير المعاصر)، ليبدأوا لعبة المؤامرات والانقلابات الصغيرة وإزاحة الأقوياء الآخرين من الواجهة إلى أن يقرر برقوق أن يعلن الانقلاب النهائي ويزيح السلطان الدمية والأقوياء الأتراك ويعلن نفسه سلطاناً، ويسجن من لا يستطيع تحييده، ويرسل من يستطيع تحييده إلى حلب وطرابلس ولاة وأمراء إلى أن ينقلب عليه يلبغا الناصري وهو من خشداشيته المتقدمين (من أبناء دفعته في الجيش)، فيستسلم ويساق برقوق إلى الكرك سجيناً.

ولنلاحظ حكاية الشرعية في دولة المماليك، فالسلطان المملوكي حصل على شرعيته من الخليفة العباسي الدمية. والآن ها هو يلبغا الذي لا يريد أن ينقلب على شرعية سلالة قلاوون التي انقلب عليها برقوق، فيعيد السلطان الطفل علي أو المنصور ليتولى باسمه، وها هنا المفارقة قوة تنتزع شرعيتها من سلطان طفل ينتزع شرعيته من خليفة دمية يحصل على راتبه بالرجاء والتوسل من السلطان.

ولن أدخل في تفاصيل التاريخ أكثر من هذا، لكن برقوق يستطيع الخروج من السجن واستعادة السلطنة ثانية بمعجزة ربانية، إذ بعد هزيمته مرة ثانية وفراره مع جنده القليلين من معركة شقحب قرب

كناكر وعرطوز في ريف دمشق، يرى معسكراً وبعض الحرس فيتقرب منهم على حذر ليكتشف أنهم الشرعية كلها في مكان واحد، الخليفة والسلطان الصغير والقضاة والمفتون والأئمة الأربعة، فيقبض عليهم ويرفع راية الخليفة صاحب الشرعية الإلهية ويبدأ استقبال الجند الذين كانوا لعدوه منطاش فصاروا له.

ونعود إلى كتاب ابن صصرى الدرة المضيئة ويا لها من إضاءة.

في هذا الكتاب سنقرأ عن الحرائق التي وقعت في دمشق أثناء حصاري منطاش ثم برقوق لها: فالحريق الأول ص 35 في الكتاب يقول:

فهربوا الناس، ورُدّوا إلى عند باب النصر، وقد قتل في ذلك اليوم خلق كثير، وأحرقوا ميدان الحصى والسوق العتيق، وبقيت تلك الأرض كما قال الله تعالى: "وقودها الناس والحجارة". واحترق في ذلك اليوم أطفال كثير وكبار، ونهب أموال، وسبي حريم، واحترق السور الذي عند حمام المصلّى، وأحرقوا حمّام بيدمر، وفعلوا في ذلك اليوم كلّ قبيح، وكانت الدائرة على أهل دمشق، وبقيت النار تعمل والناس يبكوا والنساء مهتكات، ولم يُر مثل ذلك اليوم قطّ .. .. وكان هذا برأي كمشبغا، وهو الذي أشار بحريق تلك النواحي كلّها، وصار كمشبغا من ذلك اليوم يحرق، وانفتحت عيون الناس إلى النهب والحريق، وهذا جميعاً في موازينه (ميزان الحساب يوم القيامة، وكان هذا أكثر ما استطاع ابن صصرى أن يلوم فيه كمشبغا على تسببه في الحريق والنهب والقتل والدمار، وكمشبغا هو نائب حلب من قبل المماليك).

ثم في الصفحة (40) يقول:

فأحرق طرنطاي الطواقيين (سوق صانعي القبعات – الطواقي)، وعملت النار فيها، وطلع العشير (العشائر النهابون) فنهب تلك المواضع، وفعلوا كلّ قبيح.. .. وأحرقوا في ذلك اليوم أطراف السبعة (اسم حي) وصاروا يركضون على قبور الشهداء بالخيل والرجال، وخسفوا أكثر القبور، فذكرت عند ذلك قول الله تعالى (وإذا القبور بعثرت) وقد أجاد الشاعر حيث يقول !!!!!

هل تخيَّلتم تعليقاً على هذا الحريق والدماء أجمل من هذا التعليق.. .. لقد تذكر قول الله تعالى، ثم أجاد الشاعر حيث يقول.

أما في الصفحة 43 فيقول:

وأحرقوا في ذلك اليوم حريق كبير في الشاغور، واحترق فيه جامعين، وأحرقوا أيضاً زاوية المغاربة خارج باب الصغير، وقد عايَنَتْ أهل دمشق الهلاك في تلك الشهرين أو ثلاثة، حصار وخوف وغلاء، وقلة ماء وبرد، فنسأل الله أن يرد العاقبة إلى خير يا رب العالمين.

وفي الصفحة 78 يقول:

أحرق رجال منطاش دار (يلوا) ورَبع الناصري الذي على باب الميدان وصارت الناس تعمل في تلك النواحي طول الليل، ولم يقدر أحد يروح إليها من المناطشة (جماعة منطاش) وردَّت الناس إلى حصار وقتال وحريق، وفي ثالث الشهر أحرقوا بيت ابن شرشي، ونصب منطاش مدفع في التربة الذي بجانب جامع يلبغا، وصار يرمي عليهم ونصبوا في القلعة على برج الكبش مدفع، وصاروا يرمون به عليهم، وكان مدفع مليح فإن حجارته تصل إلى قريب عمارة يونس، وكانت

المناجنيق والمدافع، والمكاحل (مدافع صغيرة) والأسهم الخطائية (المشتعلة المتفجرة) تتبادل. وأحرق المناطشة بيت ملك آص ودار الفتح، وما حولها إلى عين دير البطيخ.

في الحادي عشر من شهر جمادى الآخرى تعرص (الجامع الأموي) لحريق لم ير أحد قبله في ذلك الزمان فإنه كان آية من آيات الله تعالى ومعجزة، احترقت الوراقين، والمأذنة الشرقية، والأخفافين (صانعي الخفاف) إلى باب الخطابة، ودهشة النساء، ودهشتيّ الرجال، إلى درب العجم إلى الحمام، إلى عند قيسارية الزَرَدْ، واحترقت للناس فيه شيء كثر، وكان هذا جميعه على مقدار أربع ساعات وأقل... وأصبح أكثر التجار فقيراً ما يملك شيئاً واحترق فيه نساء ورجال وأطفال.. فإن الأعوام (العوام) مشغولين بنهب أموال الناس لا غير.. يقول الشاعر، بعد أن يصف الحرائق والدمار، والنهب، والهتك، والغصب، التي أطاحت بثلث المدينة من مكان وسكان:

وهلك الفقير، وانكشف حال الغني، ولا بيع ولا شري، والناس منتظرين رحمة الله تعالى.

أما عن الحج والمحمل فيقول: وفي سبع مئة وسبعون وتسعة كان فيها فتن ثائرة، ولم يقدر أحد يروح.

أما في سنة الحدث 793 هـ دخل في شوال عشرة أيام، ولا تحرك حجاج، ولا انتصب تحت القلعة حوض، ولا جاء أحدمن الروم (أتراك الأناضول) فلا حول ولا قوة إلا بالله، ثم إن المحمل طلع يوم الخميس في تاسع عشر الشهر، وليس معه شيء من السبيل، ولا سنجق سلطاني

إلا المحمل، وناس قلائل، وطلع أمير الركب جندي حلقة (كناية عن الاستهانة) وسافروا وهم متوكلين على الله تعالى.

سنة 794 شهر محرم، وفي خامس عشرينه دخل المحمل لا خلفه ولا قدامه.

أما البرطيل (الرشوة) فيقول عنها، وقال بعضهم: البرطيل حكيم والدنيا محبوبة ثم استشهد ببيت يقول فيه:

فبرطل إن أردت الحال يمشي

فما يمشي سوى حال المبرطل

ثم يقدم قصصاً عن أن الرشوة هي القانون، فيقول:

قيل إن بعض الناس كان جالساً يسهر في شغل له، وإلى جانبه طاسة، وإذ بفأرتين قد خرجتا من مكان، وبقوا يجوا إلى عنده، وزادوا عليه، فمسك تلك الطاسة، ورماها على الواحدة، فوقعت عليها، فبقيت تريد أن تتخلّص من تحت الطاسة، وتريد الخروج، فلم تقدر، فجاءت إليها الفارة الأخرى، فبقيت تدور حول الطاسة كأنّها تطلب تخلّصها، فما تقدر، فلمّا عيل صبرها، وقلّت حيلتها، وعرفت أنها لم يبق لأختها خلاص ذهبت إلى وكرها، ودخلت فيه، وخرجت ومعها دينار في فمها، وجاءت، فرمته عند صاحب الطاسة، وراحت إلى الطاسة تدور حولها ساعة وهو يتفرج، وقال في نفسه: لعلها تجيب زادة (زيادة)، ثمّ إنها ذهبت غابت ساعة وجاءت بدينار، فرمته عنده، ولم تزل تعمل هكذا حتى نقلت نحو عشرين دينار، فبطل الرجل شغله، وصار يتفرّج عليها كيف تنقل الذهب، وهو لا يخلّص أختها، ثم إنّها ذهبت غابت

ساعة وجاءت ومعها خريطة عتيقة (كيس، أو محفظة) ورمتها عنده، فعلم الرجل أن ما بقي عندها شيء، وقد أنصفته فقام، شال الطاسة عن أختها، فأخذتها وراحت، ولم تخرج بعدها، وهذا عجيب.

طبعاً لن أناقش معقولية القصة ولا الإحيائية فيها التي تجعل الحيوانات تملك عقل ومكر وتقييم الإنسان للذهب، فهذا لا يعنينا الآن، ولكنه حين يذكر قصة أخرى عن قرد زنى بزوجة صاحبه، ثم انتبه إلى من يراقبه فبرطله حتى لا يشي به، لنكتشف أن المؤلف يقدم لنا تفسيراً وتشريعاً لقانون كَوْني (كما يعتقد) ليس الراشي ولا المرتشي فيه بآثم، بل هو القانون الذي تسير به الحياة.

أما عن علاقة (العوام) بما يجري فالمؤلف يقدم لنا نموذجين الأول حين يعود منطاش الثائر على برقوق إلى دمشق، فيفرح به العوام، ويخرجون للترحيب به (وتفتح له المدينة، ويعلق المؤلف: ثم توجه إلى باب كيسان، ففتحوا له الناس ودخل (شكر أحمد) أحد أنصار منطاش مع المناطشة إلى المدينة على ساعة واحدة، وهذا عجيب فالسلطان برقوق يحاصرها شهرين أو ثلاثة فلا يقدر أحد منهم يصل إلى سورها.

و.. .. جاء الناصري الذي انقلب على انقلابه، وصار من أعوان برقوق. وطلب الناصري القضاة، وقال لهم: أرسم أن ينادي في المدينة ظاهرها وداخلها بألا يتخلف أحد من العوام وأرباب الصنائع لا صغير ولا كبير حتى يخرج يجهد نفسه في نصرة السلطان برقوق، ومن تخلف راحت روحه وماله، ونهبت دياره.. وخرجت حتى اليهود والنصارى وألزموهم بالقتال.

وعرف منطاش بذلك، فأمر من ينادي (يا عوام أي من ضرب بحجر، أو بعصاة قتل ونهب، ولا تدخلوا بيننا وتفرجوا علينا) و(هلكوا الناس بين الطائفتين) وبعد كل هذه الكوارث والحريق لا يتوقف المؤلف ليأسى على أهل المدينة بل يحدثنا قائلاً:

ومضى رجل صالح إلى الناصري نائب السلطان برقوق فقال له: إني رأيت رسول الله في المنام، فقلت له: يا رسول الله ما ترى ما الناس فيه من الشدة والنهب والحريق، وكثرة الفتن؟ فقال لي رسول الله: اذهب إلى نائب الشام الناصري وقول له: إنه يرسم لخطيب جامع بني أمية أن يعظ الناس، فإنهم يجدوا بعد ذلك العفو بعد السخط، والرضا بعد الخطب.. ورسم الناصري للخطيب أن يعظ الناس في الجامع وبعد صلاة الظهر وقف الخطيب، ووعظ: يا معاشر المسلمين إنما وقعت بنا هذه النازلة العظيمة لكثرة ذنوبنا، وارتكابنا المعاصي وكثرة الكذب والفجور، وقلة الأمانة، وإتباع الباطل، وأكل الحرام، وشرب الخمور، ومنع الزكاة، وترك الصلاة، وقلة الخوف من الله تعالى..

وقد أمركم سيدنا رسول الله بالاسترجاع عما أنتم فيه، والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، وكثرة الاستغفار، فإن رجل من الصالحين أبصر نبيكم في نومه وأمره أن يقول لنائبكم أن يقول لخطيبكم أن يعظكم، وها أنا وعظتكم.. ..

فحصل للناس الخشوع والندم والتوبة بما سمعوه في ذلك اليوم.

وفي ص 64:

وفي شهر رجب سنة 792 حضر بريدي من عند السلطان برقوق وعلى يده مرسوم إلى قاضي القضاة مسعود، إنّه يخلي المؤذنين في جميع المواذن بدمشق عقيب كلّ آذان يسلّموا على رسول الله صلعم، ويترضّوا عن الصحابة، فقد ذكر الخليفة (العباسي الدمية في مصر) أنّه رأى النبي صلعم في المنام، وقال له: "خلّي المؤذنين في الشام يسلّموا عليّ عقيب كلّ صلاة وأذان، ويترضّوا عن الصحابة أجمعين.. (وهذه سُنة حسنة ليس لها نظير).

أما عن العطش والقحط والاستسقاء.

أما عن وجهة نظر المؤلف في القضاء والقدر، فيقول: لكن الله تعالى يوم القيامة فعال لما يريد، فهو يوم القيامة يقبض قبضة من الأرواح، ويقول: هذه إلى الجنة ولا أبالي، ويقبض أخرى، ويقول: وهذه إلى النار ولا أبالي.. .. جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. وهكذا يعيش المؤمن، ويموت مرعوباً لا يعرف إن كانت عباداته وتقواه ستقودانه إلى الجنة، أو إلى النار، فمن يضمن ما سيقوم به في اللحظة الأخيرة أثناء النزع، أو قبل الموت بلحظات.

هذا التسليم المرعب بقوة المكتوب/ المقدر، ولنستمع إلى هذه الحكاية يرويها مؤلفنا وهي أن الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد تراجع عن حرب العباسيين في اللحظة الأخيرة لما ألهمه الله تعالى أنه مغلوب، فقال له أصحابه: ترجع، ومعك مئة ألف عربي على مئة ألف عربي، أي مقابل نفس العدد من الجيش، فقال لهم: إذا انقضت المدة لم يفيد (ذا) العدد والعدة، وإذا أراد الله تعالى أمراً بلغه، و.. استسلم!!!

أما عن حكم تلك الفترة التي سينتج عنها الكارثة التيمورية فكانت

1- لسانك أسدك إن أطلقته افترسك، وإن حبسته حرسك.

2-ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان. إن لم توقفه عدا عليك فقتلك.

3-ويروي عن الشافعي قوله: لا تتكلم فيما لا يعنيك.

ثم يروي عن النووي المحدِّث: اعلم يا أخي وفقك الله أنه ينبغي لكل إنسان أن يحفظ لسانه من الكلام.

ويروي عن عمرو بن العاص: من صمت نجا.

ثم يروي عن شاعر:

احفظ لسانك أيُّها الإنسانُ لا

يلدغنك إنهُ ثُعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانه

كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

وقال الشاعر:

الصَّمتُ زَينٌ والسكُوتُ سَلامةٌ

فإذا نطقتَ فلا تكُنْ مِكْثارَا

فلئنْ ندِمتَ على سُكُوتِكَ مرةً

فلتندمنَّ على الكلامِ مرارا

هذا هو مجتمع ابن صصرى، المجتمع الذي أناخ يأجوج ومأجوج على صدره تحت اسم السلاطين المماليك، مجتمع عدوك فيه لسانك، وبرطيلك فيه القانون.

لكن دمشق ليست مدينة الانكسار أمام يأجوج ومأجوج المماليك بل دمشق أيضاً هي ابنة الأمبوبايا، مدينة الفرح والاستمتاع بالحياة والانسجام مع الطبيعة ولنر وجهها البدري مع البدري في كتابه ((نزهة الأنام في محاسن الشام)).

ولنستمع إلى خطبة الكتاب، فبعد حمد الله وشكره يقول الحمد لله الذي جعل الشام في وجه الأرض شامة خضراء.. وأجرى ماءها الفضي على ثراء وهنا تلاعب بثرى وثراء ليس كالذهب وحلَّى به حصباء در لم يكن فيه مخشلب، وأدار من الماء خلاخيل على سوق أصول الأشجار.. أحمده حمداً كثيراً حيث أصبح اللوز بأمره على بعضهن عاقد، وبعضهن أثقلها الحمل من الجوز، فأمست بإرادته بعد قيامها تتعاقد.. وأشكره شكراً مزيداً مذ عطف الطلُّ على طفل أمهات

السفرجل، فيرضعه وهو يشرب.. ومنهن من عمَّها بالحيا، فاحمرَّ خدها كالتفاح.. إلخ.

هل سمعتم في الأدب العربي على الأقل من يفتتح كتابه بشكر الله لأنه أمدنا بكلِّ هذه النعم من فواكه وورود.. ثم تأتي مختاراته من الأشعار:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا

ولبست صوب العز وهو جديد

وبعد أن يقدم إلينا اعتذاره عن سبب عشقه الصارخ ومبررات هذا العشق لهذه المدينة وهذا الجمال ينتقل إلى أنه ليس الوحيد المعجب بهذه المدينة، بل كان رسول الله صلعم معجباً بها، فقد قال له عبد الله بن حواله: خِر لي يا رسول الله، أي تخير لي مكاناً. فقال: عليك بالشام فإنها خِيرة الله في أرضه يجتبي إليها خِيرته من عباده.. وقال رسول الله صلعم (ستُفتح عليكم الشام). فعليكم بمدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام.

ولا يكتفي المؤلف بهذا، بل يحيلنا حتى إلى التراث الديني لما قبل الإسلام. فقد قال كعب الأحبار وهو حاخام يهودي أسلم: إنَّا نجد في كتاب الله يعني التوراة أن الأرض على صفة النسر، ورأس هذا النسر هي الشام.

ثم يكمل البدري نقلاً عن كعب الأحبار أيضاً أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا من الشام، فإن لم يكن من الشام هاجر إلى الشام، ولن نمعن في تكرار ما قاله عمَّن بنى مدينة دمشق، وسبب تسميتها بدمشق، وعن مسجد دمشق الكبير يعني مسجد بني أمية، بل نتابعه ينتقل إلى وصف الرحالة المعجبين بها كاليعقوبي وابن جبير، ثم يبدأ الحديث عن متنزهاتها بدءاً من الشرف الأعلى، والشرف الأدنى مروراً بالمرجة، ومحلتي الخلخال، والمنيبع، والجبهة، وقطية، والبهنسية والنيربين والربوة والزبداني.

ويبدأ الحديث عن هذه المتنزهات، ويقتبس بعضاً من الشعر المقول فيها.

ففي الشرف الأعلى قال محمد النواجي:

وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل

دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

أما علي المارديني، فيقول في غلام له:

بدر من الشرف الأعلى له نسب

وهل لغير علي ينسب الشرف

أما الأمير مجير الدين بن تميم فيصف الميدان:

عجباً لميداني دمشق وقد غدا

كلٌّ له شرف إليه يئول

والنهر بينهما لغير جناية

سيف على طول المدى مسلول

أما عن متنزهي الشقراء والميدان فقد قال الشاعر ابن الشهيد:

ولئن غدوتَ منافساً في غيرها

هابيننا »الشقراء« و»الميدان«

أما القيراطي فيقول في وصف الشقراء:

سر بي إلى الشقراء من جلَّق

واثن إلى الخضراء منك العنانْ

فيها جنان لو رأى حسنها

أبو نواس للها عن (جنان)

أما عن متنزهي الخلخال والمنيبع فقد قال ابن نباتة:

يا حبذا يومي بوادي جلَّق

ونزهتي مع الغزال الحالي

من أول (الجبهة) قبلته

مرتشفاً لآخر (الخلخال)

أما عن المنيبع فيقول محمد النواجي:

يا سادة اهدوا محاسن جلّق

لطرفي ففاضت بالبكا عبراتُ

(منيبع) جفني فوق (ربوة) جبهتي

(يزيد) ودمعي بعدكم (قنوات)

والأسماء بين القوسين هي توريات لمتنزَّهين ونهرين هما متنزهان أيضاً.

وأرجع إلى التذكير أن هؤلاء الشعراء هم أبناء حتميون لأولئك الذين قاسوا الأمرين أيام برقوق ومنطاش والناصري، وقاسوا الكارثة مع تخلي ابن برقوق – السلطان الطفل فرج عن دمشق وهربه إلى مصر تاركاً المدينة لأنياب تيمور. وأتساءل: هل نسي هؤلاء الناس ما فعله تيمور، خاصة وأن طلاب العلم في دمشق – طلبوا من ابن عرب شاه المؤرخ والكاتب والمترجم الذي حُمِلَ مراهقاً إلى سمرقند أسيراً فيمن حملهم تيمور – وطلبوا إليه أن يكتب لهم سيرة ذلك الوحش، فكتب كتابه النادر: عجائب المقدور في أخبار تيمور، وكان ذلك في حوالي سنة 1440 أي قبل وضع هذا الكتاب بأربعين سنة. ترى ألم يسمع بهذا الكتاب البدري مؤلف كتابنا هذا، أفلم يتأثر بالمأساة التي حملها تيمور إلى العالم الإسلامي حين دمَّر مدنه وعواصمه وحواضره وأحرق معابده ونهب ثرواته، وكان من ضمن مشروعه الإجرامي في صنع إمبراطورية الخراب أن وصل إلى دمشق ودمَّرها ونهبها، وسبى نسائها وقتل رجالها كما فعل في كل مدينة دخلها.

البدري ومن مطالعتنا لكتابه الذي يستشهد فيه بعشرات الشعراء الدمشقيين وغير الدمشقيين والكتّاب الدمشقيين وغير الدمشقيين، فهو مثقف عارف بكل ما كتب عن دمشق فَلِمَ تجاهل كتاب ابن عرب شاه، وكتاب ابن صصرى، وتفرَّغ فقط للجمال والفرح والورد والمتنزهات والفواكه وأنواعها والمتنزهات ومواسمها. أتراه كان ابناً شرعياً لأولئك

الأمبوبايا الذين بدأت بهم أطروحتي الصغيرة هذه. أتراه كان كأبناء المدينة محبي الحياة والبهجة والمتعة. مديري ظهورهم للقسوة والقساة، ولنستمع إليه يحدثنا عن مواسم الفرح والسيران (النزهة الخلوية فيها) فيقول: وبينهما –أي بين متنزهي قريتين هما سطرا ومقرى– متنزه يسمى باليلكي يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل، ويستِبّون الماء تحت أشجاره، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الأشجار، ويضربون الخيام في بستان الحاجب، ويقطعون أوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها. وفيها يقول علاء الدين المارديني:

انظر إلى يلك زهت أزهاره

وزُرْهُ، فالزورة قد تعيَّنت

أشرقت الأرض بنور ربها

وأخذت زخرفها وازيَّنت

ثم تكرُّ قصائد التغزل باليلك وبسيارين اليلك.

وهناك مواسم للسيران ثم أيام زهر الدراق، ثم يقدم أشعاراً في جمال زهر الدراق، ومواسم سيارين زهر شقائق النعمان، ثم يقدم أشعاراً في جمال شقائق النعمان و..

وتتوقف متسائلاً: أكان لدى هؤلاء القوم كل هذا الفرح.. ولكنك تتذكر مقطعاً صغيراً انفلت من سواد كتاب ابن صصرى الذي يتحدث فيه عن مقاسيات ومعانيات العوام في الحرب الأهلية على السلطة بين برقوق ومنطاش إذ ما تكاد هذه الحرب تهدأ لهدنة قصيرة ويطلُّ الربيع حتى يخرج الدمشقيون إلى السيران يستمتعون بالزهور والعصافير والفرح والأكل في الهواء الطلق والغناء والرقص. وكأنه اقتناص لحظة الفرح قبل هجمة يأجوج ومأجوج التالية، فالطبيعة والجمال اللَّذين انتزعوهما من الصحراء تنادي.. ولنرجع إلى البدري يحدثنا عن زهور وورود دمشق حديث العاشق الدارس الذي يعتقد أن تسجيل هذا الجمال ربما يحميه من الدمار فيقول عن ورود دمشق بدءاً من النرجس والبنفسج والياسمين والمنثور، والسوسن والزنبق، والبهار، والأقحوان، والأذريون والبابونج والآس، والنمَّام وشقائق النعمان، والنيلوفر والبان و.. .. (قف وانظر).. و التمرحنا فيحدث الخوارزمي عن الورد:

كأنهن يواقيت أضيف بها

زبرجد وسطها شذر من ذهب

أما ابن طاهر فيقول:

أما ترى الورد يدعو للورود على

عذراء صافية في لونها صهب

ثم يكمل ابن خطيب داريا:

انظر إلى الورد ما أحلى شمائله

سبحان خالقه من يابس الحطب

كأنه وجنة المحبوب نقَّطها

كفُّ المحب بدينار من الذهب

ثم يحدث عن عزة الورد، فيقول إن جحظة البرمكي كان ينشد:

عزيز عليّ بأن يمسَّك ساقط

أو أن تراك نواظر البخلاء

أما كسرى فرأى وردة ساقطة على الأرض، فقال: أضاع الله من أضاعك ونزل من موكبه ووضعها على رأسه.

فإذا ما انتقل إلى النسرين أنشد لذي الوزارتين:

أبان لك النسرين أو خلت أنه

أكف سقاة حمِّلَت اكؤساً صفرا

ثم ينتقل إلى النرجس، فيقول إن في الشام منه: اليعفوري والبري والمضعف. ثم ينتقل إلى فوائده الطبية مسلوقاً ومشموماً وبصلاً، ثم ينقل عن رسول الله صلعم: شمُّوا النرجس ولو في اليوم مرَّة، ولو في الجمعة مرَّة، ولو في الشهر مرَّة، ولو في السنة مرَّة، ولو في الدهر مرَّة، فإن في القلب حبَّة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شمُّ النرجس.

وكان كسرى يقول: إني لأستحي أن أغازل من أحب بحضور النرجس، وقد أخذ هذا القول بعضهم، فقال:

غضي لحاظك يا عيون النرجس

فعسى أفوز بنظرة من مؤنسي

ثم ينتقل إلى البنفسج، فيقول إن منه العراقي والقلبجي، والأبيض، ولونه لون الفيروز، ثم ينتقل إلى فوائده الطبية وهي كثيرة، فورقه صالح طبياً للعين وللمعدة وللأورام الحارة، وهو منوِّم معتدل، ثم يضيف قول الشاعر:

عاينت ورد الروض يلطم خده

ويقول وهو على البنفسج محنق

لا تقربوه وإن تضوّع نشره

ما بينكم فهو العدو الأزرق

ثم الياسمين ويحدثنا عن ابن أيبك الدمشقي يقول:

كأنما الياسمين حين بدا

أصفره في جوانب الكثب

عساكر الروم نازلت بلداً

وكل صلبانها من الذهب

ثم المنثور وهو أصفر وأبيض وبنفسجي وأزرق، ثم يقدم لنا بأكثر من مقطوعة شعرية ومنها:

مولاي للمنثور حق وهو أن

تلقاه إذ يلقى بكأس رحيقه

أكرمه أو فاعلم بأن كفوفه

تدعو على من لم يقم بحقوقه

و..

لا تعجبوا لتلوُّنٍ من أدمعي

لا بدع أن يتلوَّن المنثور

ثم السوسن وهو أبيض وأصفر وأزرق، ومن محاسنه الطبية ويتحدث عنه مطولاً، ثم يتقدم بمقطوعات تتغنى به، ومن محاسن ابن المطرزي:

يا رب سوسنة قبَّلتها كلفاً

وما لها غير نشر المسك في السوق

مصفرة الوسط مبيَّضٌ جوانبها

كأنها عاشق في حجر معشوق

وقبل أن أغادر الأزهار الكثيرة التي عددها إلى الفواكه لا بد أن أقف عند اسم ورود تستوقف الانتباه باسمها الشاعري (قف وانظر) و(الشاب الظريف) وزهر البان والزهر النمَّام.

ثم ينتقل إلى الفواكه ويبدأه بالمشمش، وكلنا يعرف المشمش، ولكن كم منا أعني من المعاصرين الآن يعرف أن دمشق كان فيها ما يزيد عن العشرين نوعاً من المشمش يبدأ من الحموي، فالسنديانـي، فالأويسي، فالعربيلي، فالخراساني، فالكافوري، فالبعلبكي، فاللقيسي، فاللوزي، فالدغمشي، فالوزيري فالكلابي فالسلطاني، فالحازمي، فالايدمري، فالسنيني، فالبردي، فالملوَّح، فالفراط النجاتي، فجلاجل القلوع، ثم يصف المشمش وفوائده الطبية، وأعراض تناوله الجانبية وطرق حفظه، ثم يبدأ في الأشعار التي قالها فيه الدمشقيون، فهذا الشرف القواس الدمشقي يقول:

خلت في الروض مشمشاً

جاء في الحمل بالعجبْ

كسماً من زبرجد

بنجوم من الذهب

أمَّا العلائي بن أيبك فيقول:

ومشمش جاءني من أعجب العجب

اشهى إليّ من اللذات والطرب

كأنه في هبوب الريح تنشره

بنائق خرطت من خالص الذهب

ويكر الشعراء يتغزلون في المشمش.

فينتقل إلى القراصيا ليعدد أصنافها وفوائدها، وألوانها وكيف تسمى في الأندلس بحب الملوك وفي بلاد الروم بالكراز، ثم ينتقل إلى الشعراء يتغزلون بها، ثم الكمثرى وأنواعها، والشعر فيها، والتفاح وأنواعه والتغزل به، ثم الدراق، ثم البرقوق، ثم العنب، ثم اللوز..

وأخيراً يصل إلى الخيار والقثاء فتتساءل: أهناك من يتغزل بالخيار والقثاء ولن يخيب أملك، فسرعان ما تجد من يتغزل بالخيار قائلاً:

خيارة أهديت إلينا

من كف من يجلب السرورا

كأنها إذ قطعتُ منها

كافورة ألبست حريرا

وتكاد تضحك، ولكنك حين ترى من يتغزل بالقثاء

وقثاءة مثل هلال السماء

ولكنها ألبست سندسا

عراقية لم يذب جسمها

هزالاً ولم تحسُ فيمن حسا

لا تملك نفسك من الابتسام، ثم يفاجئك ابن خطيب داريا:

شبهت حين بدا الفقوس مبتهجاً

على الرياض وحبٌ فيه ماسور

مخازن من لجين لفَّ ظاهرها

بسندس حشوها حبات كافور

فتتوقف: لا، الأمر ليس طبيعياً. أهناك شاعر يشغل نفسه بالخيار والفقوس والقثاء في زمن المماليك. وفجأة تتذكر كتاب ابن صصرى، وما فعله يأجوج ومأجوج في جنة الله في أرضه فتتساءل: أتراها نوعاً من الباطنية؟ أترى هذا الشعر وهذا الانغماس في المتعة والفرح والبهجة ما هو إلا إغماض العينين عن الكارثة التي خلت، والكارثة التي يعرفون أنها قادمة وقد قدمت؟ فبعد أقل من عشرين عاماً على وفاة واضع أغنية الفرح ورقصة الأمبوبايا ابن البدري سيصل الخنكار

سليم خان والذي سيقول عنه ابن طولون وهو المؤرخ الدمشقي، وكان ما فعله في دمشق أقسى مما فعله اللنك (واللنك هو تيمورلنك) أتراهم كانوا يفعلون ما تفعله ضفدع الصحراء التي تسعد لسيل الربيع فتتحول بسرعة من بيضة إلى شرغوف إلى بالغة ,وتنق ما يشاء لها النقيق في صمت الصحراء، فهي تدرك أن عمر سيلها وغديرها وفرحها قصير، وعليها أن تستمتع بها ما أمكنها، فالقحط قادم والظمأ قادم، والتكيُّس الطويل تحت الطين لا بد منه لاستمرار الحياة، فيأجوج ومأجوج واقفون على الأبواب، وسد ذي القرنين قد سقط منذ زمن طويل، ولم يعد لهم إلا فرح اللحظة.. ويكرَّ السؤال ثانية: أترى رقص الأمبوبايا الذي أسعدني على جرار الأمفورا ما كان إلا رقصة ضفدع الصحراء في هدنة ما بين القحطين وسكون ما بين هجمتي يأجوج ومأجوج.

القيت هذه المحاضرة في قاعة رضا سعيد في الجامعة السورية، خلال الندوة العالمية للرواية، دمشق عاصمة الثقافة، 2008.

دون كيخوته.. شاهد النهايات، ونبي البدايات...

في مقدمة روايته الرائدة دون كيخوته دي لامانتشا يحدثنا المغامر الشاعر غير المهم، وكاتب القصة الذي لم يضع بصمة حتى ذلك الحين في الأدب الإسباني، والمسرحي الذي أراد أن ينافس عملاق المسرح الإسباني لوبه دي فيغا، فقصر.. يحدثنا ميغل دو سيرفانتيس عن فارس مغامر يسمّيه دون كيخوته.

ولكنه بعد عدة فصول يقدم لنا بها الفارس الذي سيدخل التاريخ الأدبي لبني البشر صورة عن الحالم بإقامة العدالة، بيدين نحيلتين وفرس عجفاء، ودرع من صفيح، وتابع أكرش على حمار ليصبح فيما بعد

رمزاً لكل الحالمين بإعادة السلام إلى الأرض، والقضاء على الظلم والفساد والجشع والدموية.

في مقدمة روايته هذه، وبعد الحديث عن تسلح دون كيخوته الساذج، وعن اصطناعه الذهني لأميرة يخدمها، ثم عن نجاحه في القضاء على المردة المتنكرين على هيئة طواحين الهواء، هذه الحرب التي ستصبح في القرون الأربعة التالية رمزاً لكل المعارك الخائبة التي يقوم بها الحالمون يظنون أنهم يخدمون قضية نبيلة، غير عارفين أن القضية النبيلة في مكان آخر، وليس في طواحين الهواء.

في مقدمة روايته هذه يفاجئنا سيرفانتيس بحكاية صادمة هي العثور على مخطوطة عربية في درب القناة في طليطلة كتبها مؤرخ عربي اسمه سيدي حامد بينجيلي، وسأقبل بترجمة بينجيلي بـ بن علي.

هذه المخطوطة تتحدث عن مغامرات دون كيخوته في حربه ضد الظلم والفساد، وعن سعيه لإعادة العدالة والسلام إلى الأرض متخذاً هيئة فارس من فرسان عهود خلت أصرت الكتب الشعبية على تخليدهم أبطالاً للسلام، والعدالة، وقهر الظلم.

هذه الحيلة الروائية التي تتبدى لنا اليوم ساذجة، فقد استخدمها العديد والعديد من الروائيين في كتاباتهم منذ ذلك الحين لإضفاء المصداقية على كتاباتهم، وأنها ليس محض اختلاق روائي Fictional، بل هي حقائق مؤرخة لم يعثر عليها المؤرخون والواقعيون، وها أنذا ميغيل أكتشفتها، وأقدمها لكم.

معظم إن لم أقل كل الباحثين والنقاد اعتبروا ادعاء سيرفانتيس أن مؤلف الرواية سيدي حامد بن علي حيلة روائية، أما أنا فسأفترض أن سيدي حامد بن علي شخصية حقيقية، وسأختلف مع النص قليلاً حين أقول إن سيرفانتيس لم يعثر على المخطوطة في طليطلة، ولكنه عثر على سيدي حامد بن علي في الجزائر حين كان أسيراً هناك بعد معركة كورفو.

في تلك السنوات الخمس 1575 – 1580 اجتمع سيرفانتيس مع سيدي حامد بن علي سليل الغرناطيين الإسبان المسلمين، الأندلسيين الذين أخرج آباؤهم من أرض آبائهم مع من أخرج بعد سقوط غرناطة ليبدأوا رحلة الحلم والبكاء على أرض الميعاد والجمال التي طردوا منها.

في تلك السنوات الخمس كان سرفانتيس أسيراً، ولكن لا توثيق لدينا عمّن كان سجانه ومالك رقِّه لذا يحق لي أن أدعي أن الاسم العربي الوحيد الذي ذكره سيرفانتيس في روايته هذه وكان سيدي حامد بن علي كان سجانه، ومالك رقه في انتظار الفدية، وسيدي حامد هذا كان صديقه المثقف الذي وجد نفسه محشوراً معه في فضاء واحد يتذكران أرض السمن والعسل التي أقامها الأمويون في الأندلس لتكون جنّة العالم الديمقراطية المتسامحة في عالم كان يضج بالتعصب والقسوة والدماء وتمجيد القتلة المسمين بالفرسان والمحاربين.

في تلك المحاورات التي استمرت خمس سنين وتبادل فيها سيدي حامد بن علي مع ميغيل دي سيرفانتيس الأدوار أكثر من مرة، فمرة كان سيدي حامد يلعب شهرزاد وكان سيرفانتيس يلعب شهريار، ومرة كان سيرفانتيس يلعب شهرزاد وكان سيدي حامد يلعب شهريار. في تلك

السنوات تحدث سيرفانتيس عن إسبانيا التي قدم منها، البلد الكبير، بل ربما الأكبر في أوروبا، وربما العالم عسكرياً، وثروياً في ذلك الحين، فلقد استنزفت إسبانيا معظم ذهب أميركا إليها وبذا صارت الدولة الأغنى، فترف نبلاؤها وبورجوازيوها، وبلاطيوها، ترفوا حتى بنوا القصور شديدة الفخامة والترف، ترفوا حتى غرقوا في كل الملذات الحسية الممكنة، ولكنهم لم يصبحوا أبيقوريين كاملي الأبيقورية لأن هذا الترف كان مصحوباً بتشدد الكنيسة المنتصرة على العرب والمسلمين، فهي التي استنجدت بالقوى الأوروبية العائدة من فلسطين لتحارب معها ضد المسلمين، وانتصروا، وكان لا بد للمنتصر (الكنيسة) من أن تنال حصتها من هذا النصر، وهكذا ظهرت محاكم التفتيش، النقطة الأشد عتمة في تاريخ إسبانيا، وأوروبا.

ما بين هذين القطبين، الترف الأسطوري، والتشدد التفتيشي الأسطوري عاش الإسبان الذين ستظل هذه الازدواجية تحكم مزاجهم لقرون مقبلة حتى تفقد إسبانيا تقدمها الثروي، فلقد تقدمت أمم أخرى ستمتلك ثروة العالم الجديد، وستحوله إلى صناعة وتجارة وتثمير، فيلجأ الشعب إلى التمسك بثوابت الكنيسة حتى بدايات القرن العشرين وفترة الجمهورية.

شهرزاد السيرفانتيسية سيروي لشهريار سيدي حامد بن علي عن ضيقه من هذا العالم الإسباني الذي خلفه وراءه، ليس هذا فحسب، بل سيروي لسيدي حامد عن الأدب الذي يغمر الشعب الإسباني أكثر من الشعوب الأوروبية الأخرى، أدب سير الفرسان العظماء المقاتلين الذين سيهزمون المردة والجان والكفار، وينتصرون للضعفاء والمساكين.

ولو ملك سيرفانتيس قوة قراءة المستقبل لحدثه أن هذا الأدب سيكون أدب المستقبل المعتمد من القوى المسيطرة على المجتمع تحت اسم (السوب أوبرا) في مسلسلات التلفزيون، أو البست سللر في روايات المغامرات والمحققين والشرطة فرسان هذا الزمان في انتصارهم على العصابات من المردة والشياطين والمافيا ومهربي المخدرات.

سيتحدث سيرفانتيس عن حلمه بقيام أدب حقيقي يرتكز إلى شهوة للحفر عميقاً في النفس البشرية وصولاً إلى خفاياها وآلامها وإحباطاتها، فالأدب الجميل هو أدب هزيمة الإنسان أمام قدره، وليس انتصاره، فلا انتصار للإنسان أمام القدر.

أما هذه المسلسلات من سير الفرسان، فليست سوى سوب أوبرا يتمنى أن يستطيع يوماً السخرية منها، وفضحها وإسقاط بهارجها سعياً وراء الجسد النحيل بارز العظام للحالمين بيوم العدل.

في تلك المحاورات سيتحدث سيدي حامد بن علي عن سير الفرسان العظماء، الأبطال، محققي العدل والفرح للمجتمع على الجانب الآخر من المتوسط، فيحدثه عن سلطان مملوكي اسمه الملك الظاهر جاء بكتاب عصره، وطلب منهم جعله بطلاً للمستقبل، وليس للحاضر فقط، فتطوع آخرهم بجعله بطلاً حتى للماضي، فكتبوا سيراً ثلاثة له، سيرة ابن عبد الظاهر، وسيرة ابن شداد، فيرفضهما، وتختفيان، وسيرة الدينوري فيقبلها على أن يراجعها فصلاً فصلاً، فيوافق، ويعدّل النص مرة إثر مرة ليكون حاكم وحلم المستقبل، وليس الماضي فقط، يحدثه عن سيرة ملك يمني انتزعت من الماضي، واصطنعت للحاضر اسمه سيف بن ذي يزن، سيحدثه، ويحدثه؛ ثم يتساءل سيرفانتيس فما الذي

يغري أمة ما بتحويل إبداعها كله إلى هذا الهراء المصطنع في بطل موعود بالنصر يتعاون الإنس والجن على مساعدته على الأشرار، ما الذي يغري أمة ما بتحويل كتابها إلى طبالين في حضرة فارس يصطنعونه، له السحر، وله النبوءات، وله الثروات وله النصر.

وسيقول سيدي حامد: إنها شهوة المقهورين لرؤية يوم العدل والنصر واستعادة الكرامة في زمن... انتصر فيه القتلة والعسكر على أجمل ما في الإنسان، وحولوا كل طموح فيه إلى حلم على الورق.

سيتساهران طويلاً وسيثرثران كثيراً، وخمس سنوات عمر طويل لمن لا يجد محدثاً إلا مرآته، وتوأمه، وحين يطول الحوار سيستخرج سيدي حامد بن علي كنوزه السرية، فيحدثه عن الجنة الرائعة التي عاشها بنو البشر في الحقبة الهلينستية بعد غزو الاسكندر المقدوني للشام، تلك الغزوة التي لم تكن غزوة سيوف ورماح وقتلة، بل كانت محمولة على أكف الرسالة الجديدة الفلسفة الأرسطية. وسيحدثه أن الشاميين الذين عرفوا ما لتلك المرحلة من تأثير عليهم قد خلدوها وخلدوا الاسكندر، فهو الذي أقام السور العظيم ما بين البشر وبين الهمجية الحيوانية. وسيتابع الإسلام فيما بعد تكريم الاسكندر هذا حتى ليجعله نبياً، أو ما يشبه النبي فها هو يذكر قصته في القرآن في سورة الكهف قال:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * .. .. فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً". (سورة الكهف).

وهكذا أقام الاسكندر السد بين الحضارة، وبين الهمجية، فأنقذ الحضارة والمدنية القديمتين من الغزوات البربرية الذين سمتهم الحضارات التي تهلينت بيأجوج ومأجوج.

سيحدثه عن تلك الفترة الجميلة التي جعلت الحضارتين الأعظم تمتزجان في ذلك الحين السامية بشقيها البابلي والشامي، والهلينية بشقيها الإغريقي والإيوني لتقوم تلك المعجزة المسماة بالهيلينية الشرقية، سيتحدث عن الهيلينيين وكيف تبنوا العبادات المحلية بآلهتها الطبيعية، ولكنهم هلينوا أسماءها، فتمشرقت الهيلينة فصارت المعجزة الهيلينستية. وسيحدثه سيرفانتيس كيف أخذ الأبيريون الدين العربي الإسلامي ظانين أنه الأريوسية التي كانوا يدينون بها رافضين ديانة الحكام من الكاثوليك، فسهلوا دخول العرب من مسلمي ومسيحيي الشام إلى ايبيريا، فكان الفتح الأسهل في التاريخ، بل ربما كان توأم الفتح الاسكندري المقدوني لإمبراطورية فارس الشامية والبابلية.

ثم سيتحدث سيدي حامد عن المرة الأولى التي أدخل الشاميون الهيلينستيون مفاهيم خلود بني البشر إلى المنظومة الدينية، وقد كان الخلود حكراً على الفراعنة والملوك والقادة الكبار، وحدثه عن الرواقية الشامية الهلينستية التي أكدت الأخوة والفضيلة والحياة الأخلاقية، والدعوة إلى الدولة العالمية العادلة ممهدة الطريق إلى الأخلاقيات

المسيحية النصرانية القادمة. أفلم يقلل شاعرها الكبير ميليغر: إذا كنت سورياً، فما الغريب في ذلك أيها الغريب = ابن العالم.. نحن نقطن قرية واحدة هي العالم.

حدثه عن اكتشاف سلوقس الكلداني لمركزية الشمس في الكون، وعن تأثير القمر على المد والجزر.

عن بوسيدونيوس الأفامي الفيلسوف والمؤرخ والعالم الطبيعي ومتم تاريخ بوليبيوس.

عن الشاعر انتيباتر الصيداوي الأبيقوري وعن فيلوديموس الشاعر الأبيقوري.

وعن زينون الرواقي الصيداوي الذي قالوا فيه بعد وفاته: لقد جعل من حياته نموذجاً اتبعه الجميع لأنه كان يعمل بموجب تعاليمه.

وكتبوا على شاهدة قبره:

إذا كانت بلادك الأصلية فينيقيا.

فماذا يضيرك من هذا. أفلم يأت قدموس من هناك

قدموس الذي أعطى الإغريق الكتاب وفن الكتابة.

كان سيرفانتيس يصغي ويصغي إلى هذا البحّار الأعرج الشيخ الذي ما كان يوحي بأنه خزان المعرفة هذه، وأخيراً سأله: ولكن كيف وصلت إلى كل هذا العلم، وأنت البحار المنفي الآباء من الأندلس، المنقطع عن

الإغريقية، والقشتالية المحصور في هذا الركن النائي من العالم المسمى بينيون الذي سيسمى الجزائر فيما بعد.

فيحدثه عن الرسالة العالمية التي حملها الشاميون منذ تلك الفترة، فلقد عرفوا أن جنة الأرض هي قبول الآخر، وعدم تكفيره، والقبول به كما هو، ويحدثه أن الإسلام المبكر كان حريصاً على القول: لكم دينكم ولي ديني. وعلى: إنك لن تهدي من أحببت.. الله يهدي من يشاء.

ثم يحدثه عن المسيحية التي ظهرت في الشام بعد الرواقية وقد أحببناها، وأنسنَّاها، وليس عن عبث أن الرؤية الإنسانية النسطورية، ثم الأريوسية والأبيونية التي رأت في المسيح بشراً سوياً صحيح أنه ولد المعجزة، وليس نتاج تزاوج ذكر وأنثى، ولكنه بشر ناسوت مثلنا، وانتشرت هذه الرؤية الأريوسية، أو الأريانية حتى وصلت إلى ايبريا. أما في الشرق فكان من سوء حظ النصرانية أن تبنتها روما الشرقية بيزنطة ومنذ اليوم الذي تحولت فيه النصرانية من دين شعبي إلى دين دولتي بدأت ظاهرة تطهير العالم من الآخر ممن لا يؤمن بعقيدة الملك، وهكذا أحرقت المعابد الوثنية السابقة، وقتل الفلاسفة، وأحرقت المكتبات، وشهدت البشرية ظاهرة لم تعرفها من قبل ظاهرة تكفير واستباحة دم من لا يؤمن بإلهي ورؤيتي للعالم، ثم استمرأت الدولة المسيحية الجديدة المتحمسة لدينها الجديد طعم الدم فانقلبت على المذاهب المسيحية الأخرى ممن لم يقبل بقراءات المجمع الخلقيدوني، واستمر الذبح والقتل والمطاردة والاضطهاد.. واستقر تقليد جديد في العلاقات بين البشر. أنت لا تؤمن بإلهي إذاً أنت كافر وتستحق القتل.

ولكن جماعات صغيرة ظلت مخلصة لهلنستيتها في الشام تؤمن بالتعددية وبحق الجميع في العيش والإيمان كما يرون، ظلوا متخفين مؤمنين بعقيدتهم هذه. اختفوا تحت المسيحية الخلقيدونية ديانة الملك، وظلوا باقين على هلنسيتهم حتى جاء الإسلام، وجاء الأمويون، والأمويون شاميون أكثر منهم حجازيين، فهم أسياد التجارة بين الشرق والغرب، وهم سادة الطرق التجارية، وهم مخالطوا الجماعات الشامية، العارفون بأشواق الناس إلى التعددية بعد الجبروت والقسوة البيزنطية المنفرة، فحدثوهم عن العقود، بل المئات من السنين التي عاشوها تحت رعب الذبح والخوف من الذبح إن أبدوا مظهراً صغيراً يخالفون فيه مرسوم الملك بالعبادة والمعبودات ومراسيم خلقيدونيا.

وجاء الإسلام الأموي، فكان أول ما فعل أن نقل عاصمة الدين الجديد من مدينة ضائعة في الصحراء اسمها يثرب، أو المدينة إلى دمشق عاصمة النضرة والخضرة والهلينستية التاريخية. نقلوا العاصمة عارفين بأنهم لن يكونوا حجازيين من بعد، بل سيكونون شاميين خاضعين للشامية الهلينستية التعددية، قابلة الآخر. وساعدهم على هلنيسيتهم هذه أن قانون الإيمان الإسلامي كان يركز على التعددية. فالشرط الأول للإيمان ليس أن تؤمن بالقرآن كتاباً لله فقط، بل أن تؤمن بكتب الله، التوراة والإنجيل والزبور وكتب لا نعرفها، ولكنهم في ذلك الحين كانوا يعرفونها، وإلا فلم ألحوا على كلمة كتب التي تتضمن كل كتب الله. أتراها كانت تتضمن فلسفة أرسطو التي حملها من نبأوه في القرآن أعني الاسكندر الذي سموه بذي القرنين. وكان من شروط الإيمان، الإيمان برسل الله.. أتراهم كانوا يعنون ذا القرنين الاسكندر

أيضاً الذي وصل بفتوحه إلى مشرق الشمس ومغربها بالإضافة إلى موسى وعيسى ومحمد والنبيين.

كان سيرفانتيس ينصت في انتباه إلى هذا الشهرزاد الذي كان ينكت مكنونات التاريخ متذكراً ازدواجية النفس الإسبانية، الأبيقورية المفرطة والرواقية التي وصلت مع محاكم التفتيش إلى نهايات الصرامة الحياتية. فحدث سيدي حامد عن انخراطه في الجيش في التاسعة عشرة من عمره يظن أنه سيحرر العالم من ظالميه، وسيعيد العدالة إلى الأرض، ولكنه – يقولها في حزن منكسر – فوجئ بالتراتبية الرهيبة، تلك التي تعطي القيادة والرياسة إلى أميين، أو أشباه أميين لا شيء يميزهم إلا الادعاء بالدم الأزرق ونبالة النسب. أدرك ألا أمل له في التقدم، فقرر أن يبدي الشجاعة والإقدام، فلعلهم يرونه، فيقدمونه، ولكنه لم يحصل إلا على عطب في اليد وسوداوية في القلب. ثم تنهد وقال: منذ ذلك الحين أفكر في كتابة رواية طويلة أتحدث فيها عن هؤلاء الصراخين، المتظاهرين بالشجاعة الذين لا يرون في الآخر إلا خنزيراً ذبحه أهون من أكله.

قال: أنت لا تعرف كم انتشرت حكايات هؤلاء الفرسان الذين جلبوا ثروات القارة الجديدة، فانتفخوا بها، واستجاب الكتاب الصغار لهذا المجد الصغير، وجنُّوا بهذه الانتصارات؛ طرد المسلمين، وطرد اليهود، وتصفية المذاهب المسيحية الأخرى، تصفية الشعوب الهندية في أميركا، والوصول إلى إلدورادو وجلب الذهب الكثير. أليس هذا كله دليلاً على أنهم المختارون من الله. أليس في هذا البرهان الكبير على أن الوعد بالنصر كان يلاحقهم.

تنهد وهو يحدث شهرياره سيدي حامد: فاختفى الفلاسفة واختفى المفكرون، واختفى العلماء، وصار المجد للفرسان.

ثم قال في انكسار: وصار علي أن أكون الجندي الصغير يحارب لا لمجد وإنما للُّقمة. وها أنذا أدفع الثمن ذراعي وحريتي، ولو كان الأسير أميراً، أو كونتاً، أو حتى فارساً لافتدوه بسرعة، فنقابة النبلاء من الفرسان متكاتفة.

كانا يبثان همومهما، فيحدث سيدي حامد عن الجنة الأموية التي قضي عليها في الشام على يد بيزنطة الجديدة من العباسيين الذين جعلوا الدم رايتهم، وقتل المخالف عقيدة لهم. وتابع سيدي حامد: وهرب من تبقى من الهلينستيين، المؤمنين بالإنسان والتعددية إلى العالم الجديد إيبيريا. هربوا من لعنة الدم ومكفري الآخر.

وهناك بنوا جنتهم الجديدة هيلينستيا الجديدة. حلم الإنسان الأبدي. التعددية، وقبول الآخر، وحريتي المساوية لحرية الآخر. وهكذا بعد عدة محاولات ظهرت المدينة الفاضلة في ايبيريا الأندلس، المدينة التي دعا إليها أفلاطون والفارابي، المدينة التي يحكمها الفيلسوف، والشاعر، والعالم الموسوعي، فانتشى الشعر، وتفتحت الفلسفة وكثرت الكتب الموسوعية تجمع كل معارف البشر، ومعارف العربية، ومعارف الأندلسية فحفظتها للأيام.

ثم ضحك سيدي حامد، فسأله ميغيل عما يضحكه، فحدثه أن الأيبيريين الكاثوليك قد تعلموا الكثير من الأخلاق الهلينستية من جيرانهم الإيبيريين المسلمين فلما سأله ميغيل عما يعني حدثه عن الفونسو

العاشر محب الشطرنج وعاشقه حين قصد إشبيلية بجيشه الجرار قاصداً هدم مملكة الشاعر المعتمد بن عباد، فخاف الناس وضجوا ولكن وزيره ابن عمار عرف عشق الفونسو للشطرنج، فأمر بصنع رقعة شطرنج غاية في الإبداع، وجعل صورها من الأبنوس وخشب العود العطري والصندل، وحلاها بالذهب. ثم خرج في سفارة إلى الفونسو الذي بالغ في إكرامه، وعرض ابن عمار رقعة الشطرنج وحجارته في ركن من خيمته. فرآها بعض حاشية الفونسو، فحدثوا الفونسو عنها، فلما التقيا سأل الفونسو ابن عمار: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار ماهراً في الشطرنج، فحدثه عن إجادته له، ثم تابع الفونسو: سمعت أن عندك رقعة متقنة، فأجاب ابن عمار بالإيجاب، فسأله الفونسو: أن يريها له، فقال ابن عمار: أنا آتيك بها على أن ألاعبك بها، فإن غلبتني، فهي لك، وإن غلبتك، فلي حكمي.

رفض الفونسو أن يوافق على رهان لا يعرف رهانه، ولكن طمعه في الرقعة والشطرنج غلباه بعد تردد، وأخيراً وافق. ولعبا، فغلب ابن عمار الفونسو بطريقة صارخة لم يستطع الفونسو التهرب منها، فلما سأله عما يريد. قال: أن ترجع من ها هنا إلى بلادك.

تردد الفونسو منزعجاً من هذا الشرط، ولكنه تحت ضغط حاشيته لم يستطع إلا أن يقبل. وهكذا نجت إشبيلية دون إراقة نقطة دم.

فقال سيرفانتيس: ليت الحروب كلها تحسم بهذه الطريقة. فتأوه سيدي حامد وقال: ولكن الأمور لا تجري على هذه الطريقة إذ ما إن انقضت فترة الهدنة حتى تحرك الفونسو ثانية، واتضح للمدن الفاضلة الذين

سيسميهم تاريخنا ملوك الطوائف أن نهاية الجنة قد اقتربت، فبيزنطة تعد عدتها لقتل المخالفين.

ووجد الملوك الشعراء الفلاسفة الموسوعيون، الفلكيون أنهم لا يستطيعون القبول بهذه النهاية، وكان على الجانب الآخر من المتوسط جماعات أخرى من بيزنطة الإسلامية، هؤلاء الذين كانوا يسمونهم بالمرابطين وفي لحظة يأس استنجدوا بهم. فعبر المرابطون المضيق، واصطدمت البيزنطتان مكفرتا الآخر، بيزنطة الكاثوليكية، وبيزنطة الإسلامية. فانهزمت بيزنطة الكاثوليكية، ولكن الخاسر الأكبر كان هيلنستيا الجديدة، المدن الفاضلة حلم أفلاطون والفارابي، المدن قابلة الآخر والمؤمنة بالتعددية، المدن التي كان وزراؤها من المسيحيين واليهود، وكان مثقفوها مسلمين ومسيحيين ويهوداً لم يكن فيهم من يكفر الآخر، أو يستبيح دمه.

تنهد سيدي حامد، وقال: سقطت المدن الفاضلة وكان هذا إيذاناً بنهاية هيلنستيا التي ستظل حلم البشرية وبانتصار بيزنطة لتحكم العالم كله متسمية بأسماء كثيرة، مسيحية، ومسلمة وربما يهودية وانتصر أبناء الدم، القابيليون، قتلة الأخ، لا لسبب إلا لأنه يكسر البيضة من نهايتها الأخرى.

تشاكيا، وثرثرا طويلاً محملين مصائب البشر كلها لهؤلاء الحمقى، متشهي الدم المسمين بالفرسان، الدائسين على أحلام البشر، ومفكريها، وقال سيدي حامد: منذ سنين، وأنا أحلم بوضع كتاب يتحدث عن هؤلاء الحمقى الذين يدمرون أجمل ما لدى الإنسان بسيفهم الصقيل ثم يكلفون

صغار المثقفين من الانتهازيين بكتابة ملاحم تتغنى ببطولاتهم وبانتظار البشرية لإنجازاتهم في قتل المردة والكفار ومخالفي المعبود.

فكر سيرفانتيس، وقال: بل أنا من سيضع هذا الكتاب..

اتفقا على أن يضع كل منهم كتاباً يتحدث عن سخف القتل، وسخف القتلة المسمين بالفرسان، فحلم البشرية ليس قتل الآخر، بل قبول الآخر كما فعلت هيلنستيا الماضي وستفعل هيلنستيا المستقبل، الأمل وكانت المفاجأة أن ميغيل دو سيرفانتيس قد دفعت فديته في اليوم التالي لإعطاء هذا الوعد، فمضى إلى إسبانيا، وتقاذفته هموم الحياة حتى رأى سيدي حامد في الحلم يذكره بالوعد، فبدأ وضع كتابه في اليوم التالي، وسماه دون كيخوته دو لامانشا. ثم لم ينس مرآته وصديقه سيدي حامد بن علي، فذكر أن موحي هذا الكتاب مخطوط من وضع المؤرخ سيدي حامد بن علي. وما نزال ننتظر قراءة نسخة سيدي حامد بن علي التي وضعها على الجانب الآخر من المتوسط ويقول فيها إن الموحي بوضع هذا الكتاب هو ميغيل دو سيرفانتيس.

ألقيت هذه المحاضرة في مدريد في عام 2005، في الذكرى 500 لإصدار رواية "دونكيخوتة".

صلاح الدين القائد المولود تحت نجمة سعد....

ربما كان أهم ما في عبد الرحمن عزام المؤرخ هو أنه لم يقف أمام سيرة صلاح الدين مستلباً كما اعتدنا في وقوفنا عرباً ومسلمين أمام سير الأقدمين، فمَن مِن الكتاب يجرؤ على التعامل مع خالد بن الوليد أو مع الظاهر بيبرس أو هارون الرشيد على أنه بشر له إصاباته وأخطاؤه!! نحن عبدة الأجداد الذين نحاول دائماً تبييض صفحتهم والتغاضي عن أخطائهم ربما لنقول إنا نسل طاهر من سلف طاهر. أما عبد الرحمن عزام وهو من يكتب بالإنكليزية لقارئين غربيين نقديين أصلاً جعلتهم عدة قرون من العلمية قادرين على التخلص من عبء

الأجداد على ظهورهم، فخاطبهم بطريقتهم أي أنه جاء بحسنات الرجل وبسوءاته وكلا الجانبين كثير .

يبدأ عبد الرحمن عزام كتابه في الحديث عن ضعف الخلافة العباسية منذ منتصف القرن العاشر الميلادي حين انتقلت السلطة من الأسرة العباسية إلى الحكام المحليين، فصار الخليفة دمية يحكمها الأقوياء من السلاطين، وأنا "المحاضر" أعتقد أن كلمة سلطان كمصطلح سياسي دخلت العربية منذ تسلطن الترك في بغداد ممسكين بالسلطة الزمنية تاركين السلطة الدينية أو الرمزية للخليفة، له الشرف ولهم السلطة، وهذا تقليد طوراني قديم سنراه لدى معظم المتسلطنين من الترك أو من ورثة جنكيز خان وكان أشهرهم الفاتح الباطش تيمور لنك الذي كان يسمي نفسه بالكركان أي الصهر، ولم يسم نفسه بالخاقان فشرفه كان مستقى من مصاهرته لأسرة جنكيز خان التي خفت نجمها لا من قوته وبطشه كفاتح.

أهمية مصر والاستيلاء عليها:

يتحدث نوبار باشا في مذكراته وهو من كان وزيراً لأكثر من حاكم في مصر منذ أيام محمد علي وحتى عباس وسعيد واسماعيل الأحفاد، يتحدث عن إسماعيل باشا الذي كان يطمح إلى تشكيل امبراطورية تتجاوز مصر، فتحدث عن رغبته في احتلال سورية ثانية ولو برشوة البلاط العثماني أو بالشراء من السلطان العثماني نفسه، ولكن نوبار باشا يقول لإسماعيل باشا وهذا القول شديد الأهمية: سورية حديقة والحديقة تحتاج إلى من ينفق عليها ومردودها لا يعادل النفقة عليها

وبهذا لن تستفيد منها شيئاً. سورية ليست كمصر الغنية والمغنية، والقادرة على تمويل الجيوش وصنع الإمبراطوريات.

وكانت هذه النصيحة السبب في تحول إسماعيل إلى إفريقيا والاستفادة من العلماء العظام الذين خرجتهم مدارس المهندس خانة التي اجتلبها محمد علي إلى مصر، استفاد منهم في استكشاف إفريقيا وإنشاء الامبراطورية المحلوم بها والتي انتهت لسوء الحظ، ولثقة اسماعيل باشا بانكلترا التي أحسنت الاستفادة من استكشافات العلماء المصريين لتستعمر إفريقيا العميقة ولكن هذا موضوع آخر.

هذه المقولة تذكرتها حين قرأت لعبد الرحمن عزام مؤلفنا هذا وهو يتحدث عن صلاح الدين فيقول: "ما كان له أن ينتصر على الصليبيين أو يحرر القدس لو أنه اعتمد على الشام المنقسمة بين أمراء عدة والفقيرة بسهولها وعطاءاتها ومردود ضرائبها، ولكنه حين حكم مصر صار بإمكانه تمويل الجيوش وتموينها، والاعتماد عليها ليقوم بمغامرته الكبرى في تحرير القدس، وفي صد الهجومات المالية والعسكرية الأوروبية، والاستفادة من حظه الذي حمله إلى مصر.

التوحيد:

استطاع صلاح الدين توحيد مصر والشام بعد إقناع ورثة نور الدين بالتخلي عن أنانياتهم والقبول به حاكماً للشرق الإسلامي تحت راية خليفة بغداد شبه العاجز العباسي. وكان السنة لم يضعوا إيديولوجيا فكرية لهم بعد على عكس الشيعة الذين شرعنوها منذ جعفر الصادق حسب المذهب الاثني عشري، ثم جاء الانشقاق السبعي أو الاسماعيلي، يقول عزام: "إن الخليفة القادر العباسي وهو من جرده

الترك من كل سلطة سياسية لهم فارتدى عباءة المدافع عن السنة، وعند بداية القرن الحادي عشر أمر هذا الخليفة بقراءة (مانفستوه) أو الرسائل التي تروج لمعتقداته في الديوان الخليفي. هذه المعتقدات التي تطورت إلى مذهب عرف بالمذهب القادري، وكانت هذه الرسائل تحتوي على تحديد واضح للمذهب السني، وهكذا انقسم الإسلام إلى مذهبين، فأنت إما أن تكون سنياً أو أن تكون شيعياً".

و.... جاء السلاجقة السنة بعد البويهيين الشيعة حكاماً لبغداد، جاؤوا ليلعبوا دور حماة الخليفة الذي تضاءل دوره زمن البويهيين الشيعة، والذين لم يقرروا (انتهازياً) إسقاط الخلافة العباسية السنية، فإسقاطها وهي الضعيفة يعني التبعية للقاهرة الفاطمية القوية.

في ذلك الحين ظهر رجلان وهما من سيكونان مهندسي الإحياء السني، نظام الملك الوزير الفارسي للسلاجقة، والغزالي الفقيه والمفكر كما يقول عزام، فإذا ما فهمنا هذين الشخصين فهمنا الدور الذي سيلعبه صلاح الدين في إحياء السنة، فنظام الملك هذا هو الذي أوجد المدارس التي صارت تسمى منذ ذلك الحين بالمدارس النظامية نسبة إليه، وفيها ستدرس المذاهب السنية الأربعة، وكان الحنابلة الذين تكفلوا بالتفسير الحرفي للقرآن هم إيديولوجيو الخليفة القادر، ومن هنا نستطيع أن نقول على رأي عزام: "كانت الاستجابة السنية المبكرة تجاه الهجمة الشيعية حنبلية النكهة وربما كان هذا بسبب كون الخليفة نفسه حنبلي الهوى".

وأعلق: فهاهو التاريخ يعيد نفسه فأشد المحاربين ضد الشيعية في أيامنا هذه هم من القاعدة ومن لف لفهم وهم حنابلة المذهب في معظمهم.

على أية حال انتشرت المدارس النظامية واستعادت السنية شبابها رغم سيطرة الفاطميين الاسماعيليين، ثم يضيف المؤلف: وبذرت في بغداد المدينة التي حرمت من السلطة السياسية بذور الإحياء السني، وأخذ الفقهاء والفلاسفة والصوفية والقضاة يشدون الرحال إلى بغداد، وبالتدريج بدأ مذهب سني متكامل يبزغ في الأفق، والفضل لرجال مثل نظام الملك والغزالي وابن هبيرة في تحويل المذهب الشفهي إلى مذهب واسع وشامل يحتوي في داخله آراء الأغلبية الغالبة من المسلمين.

وحين أخذت الفكرة تنتشر في بلاد الشام وصل الصليبيون غازين وفاتحين في العام 1097.

فجأة وجدت دمشق وهي المدينة المهجورة المكروهة المرفوضة من قبل الشيعة والعباسيين، وجدت نفسها مركزاً للنضال ضد الغزوة الأوروبية، فاستعادت أهميتها.

في بلاد الشام كان هناك سنة أقرب إلى التشيع وشيعة أقرب إلى التسنن، وكان الجميع يعيشون متوائمين في ما بينهم، وكان هناك الفرق المسيحية الكثيرة التي تعيش مع المسلمين في سلام، فلم يكن المسلمون قد افترقوا عن أبناء قريتهم أو مدينتهم أو عشيرتهم المسيحيين منذ أمد طويل، فكان التعايش أوفر، وكنا نستطيع في جيلنا نحن أن نراه في بعض قرى حوران والقلمون حيث يتعايش الدينان في ود، ويتشاركان المناسبات والأعياد والتهاني، بل والصدقات لرجال الدين الجوالين.

استطاع الصليبيون في بضع سنين احتلال الساحل الشامي وإقليم أورفة جنوب تركيا حالياً ثم مملكة بيت المقدس، وقاومت دمشق وحلب

وحمص وحماه وكل مدن الداخل، فلم يستطع الصليبيون الوصول إليها.

كان زنكي أو عماد الدين يتحرك من الموصل فحلب إلى حماه في الأعوام 1127 – 1128 لينشىء دولة تستطيع مقاومة الصليبيين، ولكن دمشق عصت عليه، فظل يحارب الصليبيين في قلاعهم، أما في العام 1144 فقد استولى على أورفة العظيمة وبذلك خسر الصليبيون أكثر من ربع إماراتهم، وأصبحوا وليس لديهم إلا الشاطىء.. قتل عماد الدين، فورثه ابنه المخلص والتقي نور الدين، وكان نور الدين قد كرس نفسه للجهاد في تصوف، وكان من رجاله الأخوان شيركوه أسد الدين وأيوب نجم الدين، وهنا يأتي دور صلاح الدين.

قارىء سيرة أو سير صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي لابد له أن يصاب بالدهشة لحظ هذا الرجل الغريب، وهو حظ أحسن الاستفادة منه أحسن استفادة، فكل السير التي كتبت عنه، محبة، أم كارهة كانت تبتعد عن، أو تتعجل في الإشارة إلى سنواته الأولى في دمشق قبل أن يأمر نور الدين... شيركوه وهو عم صلاح الدين بالمضي إلى مصر لنجدة الخليفة الفاطمي أمام غزوة أمالريك الصليبي، فمؤرخ بريطاني مثل رانسيمان، وفرنسي مثل داسو، وروسي مثل إليسيف، ولبناني متأمرك مثل فيليب حتي، وكاره مثل ابن الأثير، الذي كان هواه مع نور الدين، وكل هؤلاء وهم أقل من عشر من كتبوا عن صلاح الدين، وكل هؤلاء بالإضافة الى محبيه مثل ابن شداد، وشاكر مصطفى السوري المعاصر.. كل هؤلاء اتفقوا على الاهتمام به منذ صحب شيركوه إلى مصر، وإن حاول رانسيمان وابن الأثير الغمز منه فتى

وشاباً في دمشق، ملمحين إلى أنه وهو من عاش في دمشق فتى وشاباً لم يكن يستطيع تجاهل دمشق، ومتنزهاتها، وجداولها، وأنهارها، وبساتينها، تلك المدينة التي اشتهر أهلها بحب السيارين وهي النزهة الخلوية وشيّ اللحم في البساتين، ويصف مؤلف "نزهة الأنام في محاسن الشام" البدري أن دمشق كان لديها يوم للنزهات مع كل موسم زهر للأشجار المحيطة بها في الربيع، فيوم لزهر الدراق والخوخ ويوم لزهر المشمش، وما يزال الدمشقيون قبل مأساتهم المعاصرة يحتفلون بالنزهات تحت زهر المشمش الأبيض، ويوم لزهر السفرجل، وهذا ما أثار حيرتي، فالقليل من أبناء هذه الأيام من رأى السفرجل أصلاً أو أكله، وليس رؤية زهره.

في هذه المدينة كبر صلاح الدين، كبر وهو ابن الجنرال أيوب أو نجم الدين، وابن أخٍ لجنرال آخر هو شيركوه أو أسد الدين، ولنا أن نقرأ سيرته في رحلته مع عمه على أنها سيرة واحد من أبناء الجنرالات المعاصرين، وكيف يعيشون ما بين التفاخر بالسيارات الفخمة و(التشحيط فيها) أمام أعين الصبايا لاستمالة قلوبهن، وما بين مطاردتهن في البساتين أيام السيارين (النزهات)، وما بين الاستمتاع بالغناء والرقص في (بين النهرين)، وكان في دمشق دائماً متنزه يدعى بين النهرين، وهو جنينة بين فرعين من فروع بردى قاربا الالتقاء ثم افترقا، مما يشعر المتنزه وكأنه في الجنة، فإذا ما أضيف إلى متعة العين متعة الذوق في أطعمة دمشق اللذيذة وأشربتها، ومتعة الشم كان للمرء وخاصة عند شبابه الأول أن يشعر أنه في الجنة.... فهل يمكن أن يكون يوسف الفتى المراهق الوسيم الغني ابن الجنرال بعيداً عن هذه المتع؟!

أنا وبعض المؤرخين نعتقد أنه كان منغمساً فيها مثل معظم أبناء الأمراء والجنرالات، و... فجأة يأتي شيركوه عمه ليأمره بالانضمام إلى الجيش المغادر إلى مصر، ولكن، أكان شيركوه بحاجة إلى يوسف جندياً ومعه الألوف من المقاتلين المحترفين من الجيش الشامي كما كانوا يسمون جيش نور الدين، أم أنه خاف أن يعمد إلى المبالغة في اللهو في غيابهما فيفضح أباه وعمه أثناء وجودهما في مصر.

بعض المؤرخين يرجحون الخيار الثاني، وهكذا جاءت ضربة الحظ الأولى التي يجمع عليها المؤرخون وهي أنه قد سيق عنوة، وعلى غير رغبة منه، بل باكياً كما يقول ابن الأثير إلى مصر، ويعلق أحدهم بأنه أجبر على المضي إلى الحظ الأكبر، حكم مصر إجباراً، ثم يعقد بعضهم المقارنة بين النبي يوسف الذي سيق إلى مصر عبداً ليصبح عزيزاً، وبين يوسف بن أيوب الذي سيق إلى مصر كرهاً ليصبح سلطاناً.

في مصر:

كانت الامبراطورية الفاطمية التي وصلت في امتداداتها من شمالي إفريقيا وحتى مصر والشام وبعض جزر المتوسط كصقلية وجربا قد استطاعت فرض نفسها ممثلة للخلافة الإسلامية الكبرى، وذلك في زمن بدت فيه الخلافة العباسية وهي تلاقي الهزائم والانشقاقات حتى لتجد منافسين لها حتى في حكم العراق، هذه الامبراطورية الفاطمية وبعد أكثر من مئتي عام أنشأت فيها المدينة الملكية (القاهرة) والجامعة الإسماعيلية الأكبر أعني جامعة الأزهر، هذه الامبراطورية كانت قد اصيبت بالشيخوخة والهرم حتى تجرأ عليها الصليبيون الفرنجة

فحاولوا غزوها، و.... تعاون وزراء الخليفة الفاطمي مع الصليبيين في صراعاتهم على الوزارة حتى وصل الأمر بملك بيت المقدس أمالريك أو عموري بصيغته العربية أن حاصر القاهرة المدينة الملكية المقدسة التي لا يسمح للشعب بدخولها، وحاصر مصر العاصمة القديمة، وفرض الجزية على كل داخل أو خارج إليهما ومنهما.

كان الوزير شاور السعدي قد تخلص من سلفه الطلائع بن رزيك وتعاون مع الفرنجة، وضاق الخليفة بهذا الانحطاط فأرسل يستنجد بنور الدين بن عماد الدين حاكم الشام، والرجل المجاهد المصمم على تحرير فلسطين من الصليبيين، و.... تردد نور الدين في تغريب جيشه لمساعدة خصم بغداد الاسماعيلي، ولكن الخليفة الفاطمي أرسل بشعور نسائه وضفائرهن يستغيث باسمهن لنجدة مصر و.. وافق نور الدين أخيراً على إرسال قائده شيركوه على رأس جيش لطرد الصليبيين، وإنقاذ مصر، و.. كان بين الذين مضوا إلى مصر يوسف صلاح الدين، وأبوه نجم الدين أيوب، وصهره مظفر الدين كوكبوري.

ضربة الحظ الثانية التي صادفت صلاح الدين كانت في رحلة الجيش الشامي الثانية بعد طرد الصليبيين من مصر في المرة الأولى، كانت ضربة الحظ في أن نور الدين وقادته أصروا هذه المرة على شرط لنجدة الخليفة الفاطمي، أن يكون قائد الجيش الشامي (شيركوه) وزيراً للخليفة الفاطمي! و... وافق الخليفة الفاطمي، ومضوا إلى مصر، و... أصبح شيركوه الكردي الشامي وزيراً للخليفة الفاطمي، فإذا ما عرفنا أن جذر الفاطميين الذي انطلقوا منه إلى المغرب فمصر، هذا الجذر كان شامياً، فمنطلق الاسماعيليين كان من مدينة شامية صغيرة هي

السلمية... وهكذا شاء القدر، فبعد ثلاثة شهور من وزارة شيركوه للخليفة الفاطمي... توفي شيركوه. أكانت وفاته بالسم أم بالقدر، لا أحد يدري، ولكنه توفي، وكان على الخليفة الفاطمي أن ينتقي شامياً آخر للوزارة، ويقال إن الخليفة نبش في أمراء الجيش الشامي ليجد الأضعف بينهم، ويجعله وزيره، فيضمن السيطرة عليه وكان المنتقى هو يوسف بن أيوب الشاب.

وهكذا أصبح يوسف القادم من دمشق مكرهاً وزيراً للبلد الأكبر والأهم في العالم الإسلامي مصر.

الخط النسخي ينتقل إلى مصر:

بعد نشر المدارس (النظامية) في مصر وتحويل الأزهر إلى جامعة سنية بعد أكثر من قرنين كان فيهما منبراً للاسماعيلية الفاطمية، واستقدم صلاح الدين المدرسين والفقهاء ليدرسوا في هذه المدارس (النظامية) المذاهب السنية الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكان صلاح الدين شافعياً، وصار أكثر أهل مصر على المذهب الشافعي.

بعد كل هذه التغييرات الخطيرة التي قام بها في مصر كان عليه أن يواجه مشكلة الخط.

كان المذهب الإسماعيلي وهو مذهب باطني سراني قائم على عصمة الإمام ومعرفته اللدنية (الإلهية) التي لا تنال بالجهد والتعلم، بل هي عطية من الله فقط، هذا المذهب حاول الاحتفاظ بسرانيته، فجعل الكتابة في الكتب الدينية وشروحها وتفسيراتها بالخط الكوفي، ولما كان الخط الكوفي خطاً شديد الصعوبة في القراءة لمن لم يكن يعرف النص

المقروء مسبقاً، أو المعرفة بالسياق العام الذي يكتب فيه على الأقل فكان الخط الكوفي بالنسبة للقائمين على المذهب هو الحل، فالنص مكتوب و... محجوب عن العامة، وعلى متسرعي القراءة، وكان متعلموا مصر أي القائمون على شؤون الدولة من موظفين وبيروقراطيين ورجال مالية يستخدمون هذا الخط حيث كان يراد حجب المعلومة عن الفضوليين، والراغبين في معرفة الأسرار المالية للدولة، ويقول عبد الرحمن عزام وهذه لقطة رائعة منه: إن صلاح الدين كان عليه أن يدخل إلى مصر الخط السهل قريب التناول، قريب القراءة، قريب الكتابة، وكان هذا الخط خط النسخ.

وهكذا جاء بالخطاطين ومعلمي الخط من بغداد إلى مصر ليكتبوا، ويعلموا، وينشروا خط النسخ الذي أصبح الخط المعتمد في مصر، وبخط النسخ انتشر المذهب السني، المذهب الذي لا سرانية فيه، ولا عصمة فيه لأحد.

كان صلاح الدين قد دبر اغتيال الوزير السابق شاور السعدي ، فخلا له الجو من منافس ذي أنصار أقوياء، ثم قضى على تمرد الجنود الفاطميين من مغاربة وسودانيين وأرمن.

كان صلاح الدين طيلة الوقت خائفاً من سيده وسيد أبيه أيوب (نور الدين) حين يطلب منه حصة المركز الشامي من خراج مصر، وبالفعل طلب، فماطله صلاح الدين، وأعاد الطلب، فماطله، وأخيراً جمع صلاح الدين كبراء الجيش الشامي وحدثهم عن رغبته في فصل مصر الأيوبية عن الشام الزنكية، فقام أبوه أيوب إليه، وصفعه صفعة رنانة، وشتمه وقال له: أنت ونحن لسنا إلا جنوداً حقراء عند السلطان نور

الدين، ووالله لو طلب إلي أن أرسل إليه رأسك لكان رأسك الآن في طريقه إلى الشام.

صمت صلاح الدين خجلاً محرجاً، ولما كان الليل اجتمع أيوب بابنه يعاتبه ويقول: يا أحمق. أهذا فعل من يريد بناء الدول؟ ألا تعرف أن للجدران آذاناً.

وهكذا تعلم صلاح الدين الدرس الأول في الإعداد لبناء الدولة.

ضربة الحظ الجديدة

في إحدى الروايات أن نور الدين لما رأى أن صلاح الدين لا يرسل الخراج ولا يستجيب لدعوات سيده بالقدوم إلى الشام لمحاسبته، أعد جيشاً وقرر المضي إلى مصر لإخضاع صلاح الدين، ولكنه في أثناء إعداد الجيش وافاه قدره، وحظ صلاح الدين فتوفي في صيف 1174.

لم يكن صلاح الدين فقط من تنفس الصعداء عند علمه بوفاة نور الدين، فقد كان هناك حكام الإمارات الصليبية وعلى رأسهم ملك بيت المقدس أمالريك، وكان نور الدين قد أنهك الصليبيين في استكمال رحلة أبيه التحريرية التي بدأها عماد الدين بتحرير أورفة، وأكملها نور الدين في تحرير حارم، وكانت شوكة خطيرة في خاصرة الدولة الإسلامية، فصارت حارم تهديداً حقيقياً لدويلات الساحل.

وجد أمالريك وأمراء الساحل أنها الفرصة لتمزيق ما بناه نور الدين في الشام من توحيد دمشق مع الإمارات الشامية في حربها ضد الفرنجة. وهكذا هاجم أمالريك بانياس وهي بلدة في الجولان الآن، وكانت تتحكم في الطريق بين دمشق والجليل في فلسطين، ولكن زوجة نورالدين

التي كانت في بانياس حشدت الرجال، ودافعت عن المدينة أحسن دفاع، فرجع أمالريك.

كانت عيون الجميع حسب عزام، في الموصل وحلب ودمشق الإسلامية وبيت المقدس الفرنجية، كانت عيونهم على مصر صلاح الدين وماذا سيفعل، هل سيكون خليفة لنور الدين وعماد الدين وإرادة التحرير، أم خليفة لفاطميي مصر في تقاعسهم عن الجهاد، وليس له من هم إلا تكديس ثروات مصر.

ويضيف عزام أن ليس من شخصية تاريخية تسببت في الانقسام بمثل هذا القدر من الانبهار و... الخزي، فالمؤرخ (جب) يقول عنه: رفع صلاح الدين الإسلام بعيداً عن الانحطاط الخلقي والسياسي. بينما يقول المؤرخ (إهرينكروتز): تعود إنجازاته الى اضطهاده لخصومه السياسيين وقتلهم، وإلى نزعته الحربية الشرسة، وإلى انتهازيته المحسوبة، واستعداده للمساومة على المبادىء الدينية لاستغلال الظروف السياسية، ويقول عزام: حتى لو أراد صلاح الدين أن يتصرف على نحو مغاير للروح الجهادية، فلم يكن يستطيع فعل ذلك، فلم يكن العلماء الذين جاء بهم من الشرق الإسلامي ليسمحوا له بالتراخي والتكاسل.

الحظ:

كان صلاح الدين يستعد للسفر إلى الشام للاستيلاء على تركة نور الدين من المدن الشامية وانتزاعها من أبنائه الصغار حين جاءه النبأ الذي لا يتكرر في حياة الرجال مرتين، جاءه نبأ وفاة أمالريك ملك بيت

المقدس والخصم الفرنجي القوي الذي هاجم مصر، وتعاون مع شاور، وكاد يحتل مصر أكثر من مرة.

ربما كانت مشكلة الحكم في الحضارة الإسلامية أن ليس من قانون صارم واضح لوراثة الملك، الأمر الذي يجعل الحكم بعد وفاة الحاكم القوي عرضة لتقاسم الورثة له كما يتقاسمون أثاث البيت، فينتج عن ذلك انقسام المملكة إلى إمارات ودويلات، على العكس من الحكم في الممالك الغربية حيث يمكن اختصار انتقال الملك بالجملة المعروفة: مات الملك عاش الملك. وإذا ما أردنا نقل هذا المصطلح إلى الحضارة الإسلامية وجدناه يتحول إلى: مات الملك فاصطرع الورثة. وهذا ما جعل امبراطورية ألب أرسلان تتحول خلال عشرين سنة من وفاة ألب أرسلان إلى دويلات مدن، وهذا ما كان بعد وفاة نور الدين، إذ توزع ورثة نور الدين التركة، فصارت دمشق لوارث، وحلب لوارث، والموصل لوارث، والري أو طهران لوارث، كما حصل بعد وفاة عماد الدين، لذا كانت السنوات التالية هي سنوات محاولات صلاح الدين استعادة وحدة المشرق الشامي تحت حكمه وهو من افترض نفسه وارثاً لنور الدين في مشروعه التحريري.

ملك بيت المقدس الجديد:

بولدوين ملك بيت المقدس الجديد كان شاباً شجاعاً رغم إصابته المبكرة بالجذام، وقد رأى حين خاف خلو العرش من حاكم قوي أن يجعل وارثه في الحكم حاكم عسقلان "غي دو لوزينيان" زوج شقيقته، ولكن العلاقات بينهما تحولت فيما بعد إلى سيئة، فحاول بولدوين أن يطلق

أخته منه، وأن ينزع عنه ولاية العهد، ولكنه أخفق، وكان الموت السريع وتسلم غي دو لوزينيان بيت المقدس حاكماً.

كان صلاح الدين يحشد جيوشه التي يعرف أن المشارقة منهم أي الشاميين والجزيريين لا يستطيعون الابتعاد طويلاً عن إماراتهم الصغيرة، والابتعاد عن زراعاتها وخراجها، فكان لابد من إجراء سريع.

كان رينو دو شاتيون وهو المعروف في التواريخ الإسلامية باسم أرناط مغامراً حقيقياً وأقرب إلى اللص، أو قاطع الطريق منه إلى الأمير وأخلاق الأمير، وقد حاول مرة اقتحام الحجاز لسرقة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وحمل جدثه الكريم إلى الكرك لنقل الحج إلى هناك، وجباية الضرائب من المسلمين على حجهم هذا كما أوحى له جهله لدين الشعب الذي يحاربه، ولكن صلاح الدين أمر حاكم مصر أخاه الملك العادل بعبور البحر الأحمر، والتصدي له.

هرب أرناط متخلياً عن بعض فرسانه الذين قبض العادل عليهم، ثم قدمهم أضاحي بدلاً عن الأغنام في مكة اعتذاراً عن تدنيسهم للأرض المقدسة.

لم يغفر صلاح الدين لأرناط هذا جريمته غير المألوفة حتى لدى الإفرنج، وهكذا حين أحرز صلاح الدين النصر الهائل في حطين، وقبض على أمراء الجيش الفرنجي وفيهم غي دولوزينيان و(رينو دو شاتيون أرناط) هذا حاول دو لوزينيان الإفادة من تقاليد الأمان لدى المسلمين فطلب شربة ماء، فأمر صلاح الدين له بالماء، وحاول دولوزينيان تمرير الكأس إلى رينو دو شاتيون لعله يحصل له على

الأمان بشرب ماء المنتصر، ولكن صلاح الدين قال له: أنا لم آمر له بالماء، ولم أعف عن جرائمه.

وهكذا أخذ يوبخه على جرائمه في قطع الطريق على قوافل الحج وفي اعتدائه على الحجاز، فأجاب أرناط في صلف إنه لم يفعل سوى ما يفعله الأمراء (أمراء الحرب). ويكتب عزام أن صلاح الدين صمت، وران الصمت على الحاضرين ينتظرون الخطوة التالية.. وقف صلاح الدين، وغادر الخيمة، وقام الجند بحمل رينو إلى خيمة أخرى حيث صلاح الدين الذي عرض عليه ببساطة واختصار كما يقضي الدين الإسلامي، عرض عليه الإسلام!! وكان يعرف جيداً أن رينو لن يقبل، وما إن رفض رينو حتى ضربه صلاح الدين بسيفه، فقتله، ولكن ضربته لم تقطع رأسه، فانقض الجند على أرناط وأجهزوا عليه بقطع رأسه.

أما فرسان المعبد وفرسان الضيافة وهم الفرسان الرهبان، الذين كانوا الأقسى، والأسوأ في حربهم ضد المسلمين، فقد وهبهم للمتصوفة المقاتلين، فأعدموا منهم ما يزيد على المئتين من الفرسان المتعصبين الذين كانوا قد أقسموا عند ترسيمهم فرساناً على قتال المسلمين حتى الرمق الأخير.

بعد حطين:

كانت الخطيئة التي سيعاني منها صلاح الدين وجيوشه وورثته والمماليك من بعده هي أنه لم يقض على المقاتلين الصليبيين القضاء المبرم كما فعلوا عند قدومهم قبل مئتي عام في معرة النعمان، وقونية، والقدس، وهكذا تجمع الصليبيون ثانية في مدينة صور، وكان في

القدس بطريرك لاتيني جشع هو هيراكليوس وكان باليان دي إبلين الذي فر من حطين فنجا قد أرسل إلى صلاح الدين يرجوه إعطاءه الأمان للمضي إلى القدس، واصطحاب زوجته البيزنطية ماريا كومنينا، فوافق صلاح الدين على ألا يقضي في القدس إلا ليلة واحدة، وأقسم باليان على ذلك بشرف الفرسان، ولكنه ما إن دخل القدس حتى أحاط به السكان، وطلبوا إليه قيادتهم والدفاع عنهم، ورفض باليان متحججاً بقسمه لصلاح الدين، ولكن البطريرك أخبره أن القسم لكافر (صلاح الدين) ليس قسماً مما يرعى، وهكذا بقي باليان يدافع عن القدس، ولكنها سقطت.

دخل صلاح الدين إلى القدس وطهر المساجد فيها، وأعاد المنبر إلى المسجد الأقصى، وأمر بإزالة المباني الصليبية التي استحدثها الفرنجة في القدس، واستبقى الكاتدرائيات والكنائس التي كانت في القدس قبل احتلال الصليبيين لها، ويقول عماد الدين الأصفهاني عن مناسبة دخول صلاح الدين إلى المسجد الأقصى "وجلس السلطان للهناء، ووجهه بنور البشر سافر، وكأن دسته به هالة القمر..".

لم يطل فرح المسلمين، فقد وصل ريتشارد قلب الأسد إلى صور التي تحصن بها بقايا الصليبيين الهاربين من حطين والقدس، وكانت الحروب الطويلة بينهما تلك التي جعلت الغرب ينظر إلى صلاح الدين رمزاً للفروسية والأخلاق النبيلة.

كان الصليبيون ينتظرون وصول ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا إلى فلسطين، وكان بطلاً من أبطال الفرنج ينتظرونه للثأر لهزيمتهم في حطين، وفي بيت المقدس.

وهنا تبدأ أسطورة صلاح الدين في الغرب، ثم سوف تنتقل إلى الشرق لتتجاوز أساطير القواد المسلمين بأكثرهم، فهاهو يقارع في فروسية سيد الإفرنج، يقارعه حسب ثقافة الفروسية المستحدثة في الغرب التي سنشاهد آخر تجلياتها في رواية دون كيخوتة الساخرة من الفروسية والفرسان، فقد انقضى عصرهما، ولكنا سنظل نقرأ كثيراً من تجليات هذه الفروسية في السيرة المصرية (الملك الظاهر بيبرس).

كانت أوروبا تودع حالة الوحشية التي زرعها فيها النورمان، أو الفايكنغ محدثو المسيحية، الذين روعوا أوروبا، ووصلوا بحروبهم حتى الأندلس المسلمة وسلافيا التي سنعرفها فيما بعد باسمها الاسكندنافي روسيا، فقد آن لهذه الوحشية المطلقة وعبادة القوة أن توضع لها قيود حضارية، وكانت هذه القيود من وجوب شرف المحاربين في قتالهم، ومن تعليق شارة المرأة التي يدافع عن شرفها على سلاحهم، ومن التعامل النبيل بين الفرسان، وقد رأينا أول تجل قانوني لعلاقات الفرسان فيما بينهم في انكلترا في العام 1260 حين أصدر الملك جون شرعة (الماغنا كارتا) التي كانت أول عقد اجتماعي للنخبة، وكان من أهم بنودها حقوق الرجال الأحرار والفرسان أمام الملك، وطبعاً ليس من حقوق للفلاحين والأقنان.

لم يستطع الصليبيون أن يفهموا أن الحضارة الإسلامية قد انتصرت عليهم لأنها كانت الأكثر تقدماً والأكثر ثقافة، فها هو أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار" يعلل انتصارات الصليبيين فيقول: أما الفرنجة فلا شيء يميزهم إلا القوة والشجاعة وهذه موجودة لدى الحيوان، ثم يقول في موضع آخر: أما الإنسان فيتميز بالعقل والحكمة.. والشعر. ثم

هنالك شهادة المؤرخ الفرنجي وليم الصوريوالمعاصر للحروب الصليبية في كتابه عن هذه الحروب، فينصف المسلمين.

لكن الفرنجة في أوروبا ممن لم يعاشروا المسلمين، ولم يروا تقدمهم، فقد عللوا انتصار صلاح الدين وفروسيته في أنه قد تنصر مبكراً في الاسكندرية. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر وضع الكاتب الماسوني شاهين ماكاريوس كتاباً عن تاريخ الماسونية، فجعل صلاح الدين، وريتشارد من أهم أعلام هذه الماسونية التي لم تكن قد ولدت بعد.

لن أدخل في تفاصيل الصراع بين صلاح الدين وريتشارد ولكني أقول أن سبب شهرة صلاح الدين في التاريخ العربي والإسلامي الحديثين يرجع إلى اهتمام الغرب بسيرته وعنايتهم بها، فبالنسبة للمسلمين لا يمكن لصلاح الدين أن يطغى على ألب أرسلان بطل معركة منزي كرت التي قوضت الدولة البيزنطية، ولا يمكن أن يطغى على ابن تاشفين الذي أوقف المد الإسباني لطرد وتحطيم المدن الفاضلة في الأندلس، فمدّ في عمر العرب والمسلمين في إسبانيا ما يقارب الثلاثمئة عام في ذلك الفردوس الضائع في الأندلس، ولكن الغرب المنتصر حضارياً وثقافياً منذ القرن السابع عشر صار يرى أن من حقه أن يعطي الشهادات بالنبل، أو الضعة لأبناء الحضارات الاخرى، فوجدها في صلاح الدين، ومع ذلك فقد حاول بعضهم أن يجدوا تفسيراً لهذا النبل في انتماء صلاح الدينالسري للغرب إما في تنصره، وإما في ماسونيته، نافياً عن الحضارة الإسلامية تفوقها في ذلك الوقت.

عبد الرحمن عزام في تقييمه لرحلة صلاح الدين في دنيانا هذه يقول: كان صلاح الدين رجلاً بسيطاً لكن من المؤكد أنه لم يكن ساذجاً، وكما

يستنتج المؤرخ (كاهن): لا يمكن فهم صلاح الدين دون فهم نظام الملك مؤدلج وناشر المذهب السني، الذي نشر المدارس النظامية في العالم الإسلامي.... ويتابع عزام: كانت القدس رمزاً لمثل صلاح الدين العليا، وأدى استردادها إلى إسباغ الشرعية على دعواه أنه بطل للجهاد، أما دفاعه عن القدس في وجه ريتشارد فكان أعظم من استرداده لها، فقد كانت القدس رمز النصر، وكان بوسعه التراجع إلى مصر واستكمال العيش هانئاً، ولكنه لم يفعل، وظل يدافع عن القدس حتى انسحاب ريتشارد.

زائر دمشق منذ قرون وحتى أيامنا هذه سيفاجأ بتواضع قبر صلاح الدين، وهذا يعكس تجاهلنا للتاريخ، وانقطاعنا عن الأيام المجيدة في تاريخنا، هذا الانقطاع جعل زائراً مثل القيصر الألماني فريدريك غليوم الذي زار دمشق عام 1892 يصاب بالذعر لتواضع القبر الذي ربما يعكس تجاهل السلاطين العثمانيين لمآثر صلاح الدين غيرة منه، فيقوم غليوم بوضع إكليله الحربي عند قبر صلاح الدين تكريماً وتواضعاً أمامه، وبعد حوالي ربع قرن يزور"تي. اي. لورنس" قبر صلاح الدين بعد الانتصار الإنكليزي على الدولة العثمانية، فيسرق الإكليل عن قبر صلاح الدين ويحمله هدية إلى المتحف البريطاني، ليعود ضريح صلاح الدين إلى تواضعه القادري وإلى الاحتماء بذكرى تحريره للقدس. أليس هذا كافياً.

القيت هذه المحاضرة عام 2013 في مكتبة الاسكندرية.

رواية الشهوات المكبوتة في سورية إلى أين؟!....

منذ أمد قصير صادف أني صدمت بروايتين مهمّتين زلزلتا كثيراً من مسلماتي في الرواية والحضارة والتاريخ، الرواية الأولى كانت "اسمي أحمر" للروائي التركي الجميل أورهان باموق، أما الثانية، فكانت "اسم الوردة" للروائي والناقد وعالم السيميائيات الشهير أومبرتو ايكو. رواية اسم الوردة كنت قد قرأتها منذ سنوات، ولكن صادف أني رأيتها في فيلم سينمائي أيقظ قراءتي القديمة لها ورقياً.

ما زلزل مسلماتي في هاتين الروايتين هو أنَّا قد تعارفنا منذ بداية القرن العشرين على اعتبار أنفسنا ورثة الحضارة العربية الإسلامية، ورثة الأمويين والعباسيين، ورثة كل ما هو جميل في هذه الحضارة التي غيَّرت وجه العالم والحضارة لقرون.

ما زلزل مسلماتي هو قراءة أورهان باموق للجدل بين الحضارتين الإسلامية والغربية الذي بدأ منذ عصر النهضة في أوروبة، وعصر الجمود والانكفاء في الحضارة الإسلامية.

أورهان باموق رأى أن يجادل هاتين الحضارتين من خلال فن التشكيل، أو فن الرسم في كلا الحضارتين، اللون، والظل والمنظور وانعكاسهما على الثقافة وقراءة العالم ورؤية السماء والأرض، ففي الوقت الذي انحنت فيه حضارة النهضة الغربية أمام الإنسان، ولم تقبل أن يكون انعكاساً صغيراً لإرادة السماء، فرسمته بظله وعلاقته بالمشهد الخارجي من حوله. رسمته كما هو إنساناً، لا قزماً، ولا ظلاً لقوى أخرى، وكان هذا انحطاطاً للإقطاع وقياماً للبرجوازية تلك التي حملت الحضارة الغربية، وقذفت بها إلى أقاصي الأرض، ثم غيَّرت لون الأرض وطعمها غربياً.

أما الحضارة الإسلامية عثمانياً وفارسياً، ومغولياً، ونحن هنا لا نتحدث عن الأقطار العربية التي طردت لقرون خارج مكان وموقع الفعل في الحضارة الإسلامية، لقد انتزع العثمانيون (السلطان سليم)، والفرس (إسماعيل الصفوي)، والبخاريون ثم الهنود تيمورلنك والمغول، انتزعوا منها أعظم أيديها الصانعة، النقاشين، والحفارين، والسيوفيين، والرَّخاميين، وأعظم عقولها من مفكرين وشعراء ومناطقة، حملوهم إلى سمرقند وإلى أسطنبول، وأصفهان، وكان على مدن العراق والشام أن تذبل وتتقوقع، وتخرج خارج دائرة الحضارة. (المؤرخ ابن اياس يحدث عن أكثر من خمسين صنعة ماتت في مصر والشام بعد انتصار السلطان سليم على دولة المماليك).

المهم، وعوداً إلى أورهان باموق، فها هو يتحدث عن تلك المرحلة الجميلة حين حاول السلطان العثماني الذي أراد تحديث الإمبراطورية العثمانية استقبال الرؤى الغربية من لون، ومنظور، وظل في فن التشكيل الإسلامي.. ولكن المحافظين والرجعيين من رسامين، ونقاشين، ومنظرين لهم يبدأون رحلة القتل بين الفنانين الذين يريدون إدخال المفهوم الغربي النهضوي إلى التشكيل الإسلامي.

من خلال هذه المقاربة التي لا تلفت نظر الكثيرين دخل أورهان باموق إلى ذلك المنعطف الخطير الذي أخفقت فيه الحضارة الإسلامية عثمانياً في دخول التجديد والتغير ودخول العصر.

الحق حين قرأت رواية باموق أحسست بقهر مرعب، فلم فكّر هذا التركي الجميل في هذه المقاربة، ولم يفكر كاتب هذه المحاضرة ولا أيٌ من روائيي العالم العربي كله في هذه المقاربة أصلاً. لم فكر فيها باموق ولم يخطر على بالي هذا الموضوع أصلاً.

وحين قرأت أومبرتو ايكو سينمائياً، ثم ورقياً، فأرى استفادته من ابن حزم ومن ابن رشد، ومن ألف ليلة وليلة في روايته التي جادل فيها آخر سيطرة البابوية والإقطاع ومحاكم التفتيش على أوروبا، فتمنعها بقسوة من قراءة أرسطو، وكتابه المفترض عن الكوميديا الذي لا بد من أن تسخر من مقدسات أوروبة الإقطاعية.

حين قرأت هاتين الروايتين، تذكرت كتابات ميلان كونديرا الكاتب التشيكي/ الفرنسي، اليهودي/ المسيحي مختصر الحضارة الأوروبية المعاصرة في قراءته للعالم في رواياته.

حين قرأت هذا كله وذكرته وتمعنت فيه تساءلت: الرواية الجنسية الناشطة في سورية الآن إلى أين؟ فتذكرت أنه في أوائل ستينيات القرن الماضي ترجمت دار الآداب كتاباً لكولن ويلسون اسمه "اللامنتمي" فانفجر الكتاب بين أيدي الكتاب الصغار ومبتدئي الكتابة وصار إنجيلهم وكنت لا ترى شاباً في تلك الأيام ماضياً إلى مقهى الهافانا أو البرازيل إلا وهو يحمل نسخة من الكتاب مفاخراً وسائلاً زميله إن لم يكن يحمل الكتاب. أفلم تقرأ كتاب "اللامنتمي"، وكان الآخر إما أن يتلعثم، أو يتفاخر أنه قرأه، والمضحك أن الكتاب كان دراسات نقدية عن روايات غربية لم يترجم معظمها إلى العربية، ولا يعرف القراء عنها شيئاً، ولكن العنوان المُلبس والملتبس اللامنتمي والآتي إلى جيل كان قد عانى من مباحث السراج ما عاناه بغض النظر عن انتمائه السياسي، هذا الجيل وجد إجابة عن خوفه وحيرته في كتاب اللامنتمي، فكنت إذا سألت واحداً منهم في ذلك الحين عن انتمائه أجابك في فخر: لا منتمي، وكأن اللامنتمي هو انتماء إلى من لا يخافون عقوبات المباحث.

بعد تلك الفترة وصل إلى السلطة أحزاب ثورية شجعت الكتابة الملتزمة، والنضال، والأيديولوجيا، وصارت الكتابات في معظمها ملتزمة بالحديث عن الفلاح المناضل ضد الإقطاعي والمنتصر عليه، والعامل المناضل ضد الرأسمالي المستغِّل مصاص الدماء إلى آخر أدبيات تلك الفترة، ثم ينتصر العدل، والفلاح المظلوم، والعامل المسروق.

ثم دارت الأيام وسقط الاتحاد السوفييتي، وتراجعت القضية القومية، وتراجعت الاشتراكية، وصار الأدب الملتزم، وأدب الأيديولوجيات وأدب القضايا حكاية مملولة وسقيمة ولا تقنع أحداً، والحق إن ميكانيكية كتابتها وعدم إيمان كاتبيها الحقيقي بما يكتبون جعلهم يكتبون بهذا الإملال الذي ما لبث القارئ والكاتب والناشر أن ملَّوه.

وحتى لا نظلم كتابنا في العربية، وفيهم الكبار من أمثال نجيب محفوظ الذي كتب "أولاد حارتنا"، وكتب ملحمة الحرافيش، والكاتب المغربي بن سالم حميش الذي كتب عن عدد من الشخصيات الإشكالية في تاريخنا العربي من أمثال الحاكم بأمر الله، وابن خلدون، وأنا لا أزعم أني محيط بكل المشهد الروائي العربي، ولكن، والحق يقال إن الكاتب العربي، بشكل عام لم يشغل نفسه بالقضايا الكبرى للإنسانية، وللعربية، وللإسلامية، بل كان غارقاً في معظم الأحيان إما في مقارعة الاستعمار، أو في مقارعة الحاكم الظالم، أو في مقارعة الطبقة المستغلة الظالمة جاعلاً من المواضيع السابقة مبارزاً مجسداً لم يحاول تجريده ليصبح واحداً من قضايا البشرية الكبرى كما فعل أورهان باموق وأومبرتو إيكو.

والآن.. ما الذي تبقى أمام الكاتب السريع الذي يريد الكتابة الروائية ولا يريد أن يتعب في سبيل كتابتها؟ ما الذي تبقى أمام كاتب لا يريد أن يقرَّ بأن الرواية الحديثة هي خلاصة ورحيق ثقافة عميقة متعمقة؟ وهي والحق يقال نتاج لبحث جاد، إنها دراسة أكاديمية تتحول إلى فن، إلى رواية.. ما الذي تبقى أمام الكاتب السريع الذي لا يعرف كتابة الرواية البوليسية التي تباع في أكشاك الميترو في أوروبة؟ فالرواية البوليسية لها تقنيتها ولها أبحاثها ودراستها أيضاً، ولنذكر رواية "شيفرة

دافينشي" التي ليست في المحصلة الأخيرة إلا بحثاً في الأديان المقارنة، وفي التاريخ أعيد طبخه في رواية بوليسية. هل يستطيع كاتبنا نصف الصحفي ونصف الكاتب أن يجهد نفسه في بحث كبحث دان براون عن مريم المجدلية ومصائرها، أو.. هل يجرؤ؟

إذاً ما الذي تبقى أمام كاتبنا السريع والمتسرع للكتابة؟ الرواية التاريخية. يا إلهي حتى الرواية التاريخية في حاجة إلى درس وبحث وجهد حتى تستخلص منها المادة الصالحة لكتابة رواية تاريخية.

وإذاً.. ما الذي تبقى أمام كاتبنا السريع المتسرع إلى الشهرة وإلى الوصول إلى القراء وإلى الثراء الذي وعدوه بالوصول إليه حين يكتب الرواية؟

نظر من حوله. فكّر، تأمل وأخيراً رأى جسده.. رائع ها هو حقل عظيم للكتابة لن تلاحقك إليه الأيديولوجيا والأيديولوجيا المضادة ورجالها لو كتبت عن الجسد.. حسن لن تضطر إلى الدراسة والبحث، فجسدك مبذول.. وما عليك إلا أن تتذكر مغامراتك الجنسية، وما سمعت عن مغامرات أو خياليات أصدقائك ثم تبهرها وتكتبها و.. تصبح كاتباً.

وماذا بعد.. أنا لست ضد الكتابة عن الجنس، ولا عن الجسد، ولكن حتى الكتابة عن الجنس لها شروطها، فهناك من حوَّلها إلى حالة شعرية مثل أراغون، وهناك من حوَّلها إلى جدل سياسي وتهديم لبنى المجتمع الظالم كما فعل هنري ميللر، وهناك من حوَّلها إلى نقد للمجتمع المتحجر الفيكتوري المنافق كما فعل د. هـ. لورنس. فماذا عن

كاتبنا السريع المتسرع الذي لا يملك إلا تجاربه الجنسية وتجارب أصدقائه الغنية جداً!!!

وماذا بعد..

ستنتهي الحكايات والتجارب والخبرات.. وماذا بعد؟ إلى أين ستنتهي روايتنا ومخدوعونا من المتسرعين الهاربين إلى كتابة تجاربهم الجنسية؟ إلى أين سيصلون؟ وهل حكم علينا أن نظل دائرين في هذه الدوامة؟ لطمة مباحثية تهرب بنا إلى كتاب اللامنتمي، ولطمة من هزيمة الأيديولوجيات تهرب بكتابنا الصغار والشباب إلى كتابة تجاربهم الجنسية وماذا بعد؟ وما نصيب الرواية من كل هذا؟ ما نصيب علم الجمال الذي تنتمي إليه الرواية من كل هذا؟ هل سنظل شحاذين على أبواب كولن ويلسون وميلان كونديرا؟ أم سيأتي اليوم الذي ننشئ فيه فننا الروائي الحق؟ الفن القائم على الثقافة والحضارة والجمال.

ألقيت هذه المحاضرة في مؤتمر الرواية العربية في مدينة الرقة، 2009.

سيرة روائية في سيرة جيل....

أذكر بيتاً دمشقياً، ومكتبة تملأ جدران غرفة الوالد، مكتبة مملوءة بالكتب الوقورة المجلدة بجلود حيوانات ماتت منذ زمان، بالكتب المحفوظة ليس بالجلود فقط، بل بالقمطر وهو علبة من جلد يحفظ فيها الكتاب المجلد، أذكر رائحة الهواء الساكن والجلود النائمة، وأذكر خلع القبقاب أو الحذاء قبل دخول الغرفة، طقس كان مكرساً لدخول الجامع فقط، ولكن في بيتنا كانت غرفة المكتبة تحظى بطقس خلع الحذاء والانفصال عن الخارج، أذكر الطاقية البيضاء، طاقية الراحة على رأس الوالد والاستغراق الطويل في القراءة أو كتابة التعليق

والاستغراق حتى لا يسمع النحنحة والهمهمة، وأذكر يد الأم تتطاول من الباب فتشدني إلى الخارج مستنكرة اختراقي حرمة ساعات القراءة لدى الوالد.

أذكر أول ما أذكر مكتبة الحارة وروايات ادغار والاس، وموريس لوبلان، وكونان دويل، وأذكر ذلك العالم الغامض من الإثارة والمغامرات وذكاء اللص الظريف أرسين لوبين وذكاء المحقق الشهير شرلوك هولمز وغباء الشرطة الرسميين الدائم، وأذكر صور النساء نصف العاريات على الغلاف، وأذكر الدخان المتسرب من فوهات مسدسات لا تنضب رصاصاتها، وأذكر رفيق المدرسة الابتدائية الذي هداني إلى هذه المكتبة التي كانت تؤجر الكتاب بفرنك أو خمسة قروش سورية، وأذكر.. صدمة الوالدة حين اكتشفت هذه الروايات في حقيبة المدرسة، فرأت صور أنصاف العاريات وسألت عن هذا المدعو أرسين لوبين، فاكتشفت أنه لص وأنه يعلم قارئيه السرقة، فخافت حتى الذعر، وكان لي جلسة مع الوالد الذي اكتشف متفاجئاً أني كبرت وصرت أحب القراءة، فأدخلني إلى مكتبته ليس متسللاً، ولا مستطلعاً، بل شريكاً يحق له أن يقرأ ويقلب في الكتب مع شرط مسبق، الاحترام الكامل للكتاب وتجليده وطريقة وضع لسان الكتاب مؤشراً إلى حيث توقف القارئ في قراءته بدلاً عن قلبه على وجهه حيث توقف.

أذكر المكتبة وأذكر الاغراءات الكثيرة، جائزة من خمسين ليرة والرقم كبير جداً في منتصف الخمسينيات إن حفظت ألفية ابن مالك، ولكن من يحفظ ألفية بن مالك، وفي البيت شجرة التين العقيم العاجة بالعصافير والحساسين والسناجيب. كان هذا قبل أن تُغزى الغوطة، وتُقتل كل أشكال الحياة فيها، من يحفظ ألفية ابن مالك وفي الباحة بحرة تعج

بأسماك بردى وما عليك لتداعبها إلا أن تغلق البالوعة أسفل البحرة لتمتلئ الباحة بالماء وبسميكات بنية بحجم الإصبع أو الفتر ولك أن تطاردها لعصر كامل مضى فيه الأهل للزيارة؟ من يحفظ ألفية ابن مالك وفي الحارة مكتبة تدفع إلى واجهتها كل يوم بمجلات الهلال والمختار وروايات جيدة الحبكة حتى أنها ليس فيها إلا الحبكة الجيدة المبهرة ببعض الملاحظات الجافة الغرامية والكثير من ذكاء أعداء الشرطة؟

عرف الأب أن ألفية ابن مالك أكبر من رغبات الصبي فدلني على رفوف الأدب، وهكذا قرأ الصبي وفي مرحلة مبكرة جداً كتاب الأغاني ورسائل إخوان الصفا، والكامل للمبرِّد وحيوان الجاحظ والدميري، صحيح أنه لم يفهم منها الكثير في حينها، ولكنها كانت مثيرة بما فيه الكفاية في نقله إلى عالم العباسيين وطربهم وشعرائهم ورؤيتهم للعالم الطبيعي بحيواناته الحقيقية والأسطورية.

وحين أراجع تلك المرحلة من التكوين لا أستطيع إنكار تأثري بكتاب روايات المغامرات في وجوب سيطرة الحبكة على الكتابة، وأنا لم أحب أبداً الأنتي رومان، ولا البوست موديرنيزم في كتابة الرواية، وما أزال متوقفاً عند كتابة الرواية ذات الشروط الكلاسيكية من مكان وزمان وشخوص وحبكة. وحين أراجع تلك المرحلة من التكوين لا أستطيع نسيان تأثري بالعالم اللغوي والخيالي للأب الكبير الجاحظ، ولا للمعلم الكبير الأصفهاني الذي يعتبره بعض النقاد هومير العرب الذي ترك لنا إلياذة العرب الأغاني.

لكن المفاجأة الكبرى التي غيرت رؤيتي وقراءاتي للعالم كانت اكتشاف مخبأ سري في المكتبة، كنت أبحث فيه عن كتاب ما، فانقلب الصف، وانكشف الرف عن صف آخر خفي لن أذكر لكم منه الآن إلا ألف ليلة وليلة.

فيما بعد وحين أراجع تلك الذكريات كنت أتساءل: لماذا دفع بشطر كبير من الثقافة العربية إلى المكان الخفي، السري، الشخصي؟ وسيجيب بعضكم: ربما حفاظاً على حياء الأطفال، ولكن الأطفال لم يكن يسمح لهم بدخول المكتبة إلا بشروط صعبة جداً، وأنا لو لم أبرهن على فضول ونهم جادين لما سمحوا لي بالأصل في التجول بين أرفف المكتبة.. وحين أراجع تلك الذكريات ثانية سأصل إلى قناعة هي جفاف روح الثقافة العربية في قرون القحط. ذلك الجفاف الذي جعلها ترى الحياة إعادة قراءة، وتعبداً أمام ما قال الأجداد، وخجلاً ومداراة وتستراً على ما فعلوه، هذا الأمر الذي طال لقرون وقرون حتى تم الانفصال الكامل في حضارة لا تعرف التمايز بين الروح والجسد، انفصال جعل الجسد وشؤونه عيباً وحراماً نمارسه ونقرأ عنه ونطلق فيه النكات، ولكن على خجل واستحياء واستغفار لله لما أذنبنا.

كانت ألف ليلة وليلة الكنز المعرفي الذي ما إن دخلته حتى صار خدني ورفيقي وصديقي، كنت آخذ الجزيء منه وكانت مطبوعة على شكل كتيبات من ملزمتين أو ثلاث، ثم أضعها ضمن كتاب مغني اللبيب، أو ابن هشام، وأستغرق في عالم من إبحار وطيران وأماني تتحقق على يد الجان مستمتعاً بنظرات الوالد السعيد بأن ابنه قد عاد إلى العقل أخيراً.

في مؤتمر عالمي للرواية وكان مكرساً لما بعد الحداثة، تقدمت بعرض للشعر العباسي المتأخر حين انطفأت وقدة القلب فصار الشعراء يكتبون شعراً فيه بيت منقوط، وبيت مهمل بلا نقاط، ويكتبون الشعر المدور بحيث تقرأ البيت من آخره كما يمكن قراءته من أوله، وأضفت: وهذا ما نراه الآن في حضارة -أعني الأوروبية- قالت معظم ما لديها، وأجابت عن معظم أسئلة القلب والروح، فلم يتبق لها إلا البهلوانيات، الأمر نفسه الذي حصل للحضارة العباسية قبل قرون، ثم علقت متذكراً بيت شيخنا النفري: إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، وقلت: ومقلوب هذا الكلام صحيح: إذا ضاقت الرؤية اتسعت العبارة. وهذا ما نراه دائماً لدى الحضارات المثرثرة، الكثير من الغثاء والقليل من النفع.

المهم بعد مرحلة ألف ليلة وليلة والأغاني والحيوان اكتشفت أني صرت أعرف من الإنكليزية ما يكفي لقراءة الرواية الإنكليزية وإن متعثراً.

دخلت عالم الأدب العالمي الواسع. عرفت ديكنز، وعرفت هوم، ثم همنغواي وفولكنر وسينكليرلويس ولكن الأحب إلي بين الأمريكيين كان جون دوس باسوس، أما المفاجأة المزلزلة لي في تلك السن فكان لورانس داريل في رباعية الإسكندرية التي سيكون لي معها فيما بعد وبعد سنين كثيرة من الوعي الكثير من المآخذ السياسية والتثاقفية بل والأنثروبولوجية، ولكنها في حينها وقعت عليَّ موقع الزلزال، فلأول مرة أرى بلدي، مجتمعي، ثقافتي، حضارتي، تاريخي، بعين متفحصة غريبة تقدم لي الشكل الآخر لما أعرفه، وستصبح هذه العادة إدماناً دائماً لي أن أرى الوجه الأول، ثم أحاول جاهداً ما استطعت أن أرى

الوجه الآخر، الوجه الذي لم آلفه، ولم أعرفه، وكان هذا ما فتنني فيما بعد في جيرار دونيرفال، في رحلته إلى الشرق، وفي لامارتين، وفي ريتشارد بيرتون، والآن أعود إلى التساؤل: هل كان المتشوق لرؤية ما يراه الآخر فيَّ هو الجزء المتغرب ثقافياً مني، أم أنه شهوة الروائي لإعطاء الآخر الحرية الكاملة في قول ما لدي؟

هذه الفكرة سأطورها فيما بعد نظرياً في مقال لي أتحدث فيه عن الشعر صوت الأنا والحقل الذي كلما ازدادت الأنوية فيه حلا الشعر وجَمُل، فهو صوت الفرد في مجتمع ما قبل المدينة، ثم قلت إن الرواية هي الشكل الديموقراطي للكتابة، فكلما بلغ تسيد الكاتب لنصه المرحلة التي يجعل فيه الشخصية التي يكرهها تقول مقولتها بالصدق نفسه الذي تقول الشخصية التي يحبها مقولتها ارتفعت الرواية، وسمت، وكان شاهدي الأكبر ديستويفسكي في نصه الخرافي العظيم "الإخوة كارامازوف"، وقلت في حينها: هذا الحس الديموقراطي في إعطاء الأنا والهو الحق الكامل في التعبير هو ما ينجح الرواية، وقلت عن الروائي: إنه كلما انحاز لهوى وإنجاز ضد هوى كما يفعل عموماً الأدب النضالي ضعفت الرواية، وفقدت كثيراً من مصداقيتها، وفكحت أو عرجت.. إلخ.

في تلك السن كنت أنوس بين الأدب المترجم وهو بمعظمه عن الرواية الفرنسية الواقعية وما بين الأدب المكتوب باللغة الإنكليزية، وكان في معظمه أيضاً من الأدب الواقعي، وإن طمح في واقعيته إلى غزو مجاهل في الروح، وتاق إلى مغامرة في الزمن بأكثر مما ترجم عن الفرنسية ثم.. جاءت مرحلة الواقعية الاشتراكية، فسدَّت كل النوافذ وأقنعتنا جميعاً أن الرواية هي الواقعية، وأن الرواية هي وسيلة

للنضال، واندلق كثير من الكتاب باللغة العربية إلى كتابة ميكانيكية، الشر فيها واضح وهو الآخر، مستعمراً، أو محتلاً، أو غازياً، أو مستغلاً، والخير فيها واضح، إنه ابن الشعب البار المستعد دوماً لحمل قدره، كدت أقول صليبه متأثراً بلغة ذلك الزمان، والنضال حتى النهاية، وهو منتصر دائماً ولا شك، فالحتمية التاريخية تفرض انتصاره.

وحين أراجع أوهام تلك الفترة، أتساءل: ذلك الإيمان المطلق والنهائي بانتصار المظلومين والمستضعفين والمستغلين والطبقة العاملة والفلاحين، ذلك الإيمان المطلق بتلك الحتمية، أليس فيها شيء من مشيحانية دينية آمنت بها الأديان التوحيدية الثلاثة وأورثتها للستالينية فيما بعد. سيعود المشيح أو المسيح أو المهدي إلى الأرض، وسيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وسيأكل المستغِّل والمستغَّل والذئب والخروف على طاولة واحدة.

ونعود إلى الواقعية، والغريب أن أول محاولة للترجمة عن الأدب العالمي كانت ترجمة رفاعة رافع الطهطاوي عن مغامرات تليماك وهي مسرحية سياسية أراد الطهطاوي منها أن يبين فيها للخديوي عاقبة الظلم، وما سيؤول إليه الحاكم الظالم. وهكذا دشن الطهطاوي الأدب الواقعي والنضالي في عمل واحد.

حين أذكر الرف الخلفي لمكتبة الوالد حيث كانت ألف ليلة تختفي وحيث كانت السير الشعبية الملك الظاهر، وسيرة الملك سيف، وحمزة البهلوان و.. كتب أخرى. حين أذكر ذلك الرف أذكر الطهطاوي ومن لحقه من المترجمين والمؤلفين الذين كانوا يصرون على وظيفية الأدب

غير مكترثين بما عمل عليه الأجداد في الليالي العربية، وفي عجائب المخلوقات للقروييني، وفي فريدة العجائب لابن الوردي، وفي السير الشعبية، فحولوا الأدب إلى وظيفة، وتركوا الخيال وجموحه وجمالياته فأين في كل ما كتب الغرب في القرنين الفائتين ما يساوي شهرزاد أو علاء الدين، أو الملك سيف بن ذي يزن والحكيمة عاقلة؟ بل أين في كل ما أنجز العقل العالمي من مخلوقات روائية ما يساوي ذيوعاً وانتشاراً وتأثيراً في مخيلات أجيال وأجيال علي بابا، أو السندباد؟ وتعالوا نقارن مثلاً: هاملت، الأب غوريو، راسكولينكوف، الكفة راجحة بقوة إلى منجز العقل الخيالي العربي، فلماذا أدرنا ظهرنا له وتشبثنا بالمقود الغربي يقودنا في مدارسه من الواقعية إلى الطبيعية إلى السريالية، إلى الأنتي رومان، وأخيراً إلى الكتاب الإلكتروني رواية يتعاون في كتابتها المؤلف والقارئ ولا نص نهائياً لها أبداً؟

بعد النوسان الطويل ما بين رواية الحبكة الحادة وأنا لم أحب الكتابات المائعة لغوياً أبداً ككتابات المنفلوطي والرافعي صاحب "أوراق الورد". كان شيء في المزاج الشخصي ينفر منها، فلم أكن أبداً عبداً لجماليات اللغة على حساب الشخصية والعمارة والزمن والمكان.

بعد النوسان الطويل ما بين الرواية الواقعية والتتلمذ الكامل أمام الغرب بلغتيه الإنكليزية والفرنسية كانت كارثة عام 1967 وهي كارثة أيقظتني فجأة من الاستلاب الذي ساقني إليه الطهطاوي منذ تليماك، وساقني إليه تلامذة الفكر السياسي الغربي فانكشف الغرب أمامي بكل وقاحة البندقية الإنكليزية في يد الإسرائيلي وكل جلافة طائرة الميراج تحمل النابالم إلى قرانا وأطفالنا وكل دناءة السكاي هوك والإف 15 بكل ما فعلت في مخيماتنا ومعسكراتنا، فوجدتني أنكفئ على نفسي

أبحث عن هوية جعلني الغرب أدير الظهر لها، وكانت العودة الصارمة لمكتبة الوالد.

كنت أبحث عن آباء حقيقيين فوجدتهم في أبي حيان التوحيدي ووجدتهم في المعري، ووجدتهم في ألف ليلة وليلة، وحين أمعنت في الحفر وجدتهم في الكاتب السوري العظيم الذي أدرنا له ظهورنا لأنه جاء قبل العربية، رغم أنه كان يفخر دائماً بالإعلان: نحن السوريون وأعني به لوقا أولوقيانوس، أو لوسيان السميساطي ذلك الذي ترك لنا (بزعمي) الرواية الأولى في تاريخ العالم التي سيتأثر خطاها مؤلفو ألف ليلة وليلة في المخلوقات الخيالية التي ابتكروها طائر الرخ، والحوت العملاق كجزيرة، والأشجار تنبت بشراً يتدلون منها ثماراً، وسيتأثر خطاها مؤلفو رحلات غليفر وغارغانتوا وبانتاغرويل، و.. المعري في رسالة الغفران، ودانتي اليجيري في كوميدياه الإلهية.

في رحلتي تلك ما بين لوقا من سميساط وميلليغر من غادارا والتوحيدي بدأت أستعيد شيئاً من توازني الروحي، وثقتي بأني أنتمي إلى حضارة صحيح أنها وضعت مشعل الحضارة جانباً، أو سلب منها، ولكنها حملته لقرون طويلة قبل الإسلام وبعد الإسلام، ما أزال أذكر حسي بالفخر والإعجاب وأنا أقرأ رحلة ابن فضلان إلى بلاد الرس "الروس" والبلغار فأرى في أية بربرية كان هؤلاء القوم يعيشون وكيف نظر إليهم السفير البغدادي إلى بلاطهم المتبربر، فلم تعد تزعجني الملاحظات التي قالها اللنبي وغورو وكرومر، فالدنيا دول.

في روايتي المنشورة الأولى، وكان اسمها "ملكوت البسطاء" تعرضت لسيرة حياة أسرة من ريف دمشق القريب الذي صار حياً من أحياء

المدينة، وأعني المزة، هذه الأسرة خاضت الحرب العالمية الأولى جوعاً وفقراً وعوزاً ومرضاً و.. تمزقاً ما بين ولديها، واحد ظل يؤمن بالعثمانية حلماً تاريخياً وقدراً، وواحد تحول إلى قاطع طريق ضد الجيش العثماني نفسه أثناء انهزامه واندحاره، فشكَّل اللبنة الأولى في ثروته وتنتهي الرواية بالجندي العثماني الذي انضم إلى الثورة ضد فرنسا حال عودته من الأسر في القناة، ثم وحين تنهزم الثورة يضطر إلى العودة ليعمل أجيراً لدى أخيه الذي لم يفعل إلا أن يجمع الثروة من الأزمة.

هذه الرواية شبه التاريخية، شبه الواقعية، كان لها مزية كبرى هي احتفالها بالمكان، و.. احتفالها بالحداثة الروائية، فقد كانت رواية أصوات مقسمة على أصوات أربعة، ورواية مونولوغ داخلي، فزاوجت ما بين واقعية الحدث ومحليته، وحداثية العمارة، وقد قوبلت باحترام وقبول جيد في حينها، ولكن، وكما يحصل لكل الكتاب ما إن يتعرفوا على الوسط الأدبي في بلادهم وينغمسوا في حواراته حتى يخضعوا لنظرية الأواني المستطرقة، وإذا بي أنضم إلى جوقة المبدعين السوريين أو الشاميين بالأحرى الذين كانوا يؤمنون في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات أنك برواية واحدة تستطيع تغيير مصير أمة وبديوان شعر تستطيع إسقاط نظام، وهكذا تنازلت قليلاً في شروطي الفنية، وكتبت روايتي سجال سياسي هما "طائر الأيام العجيبة" و"المدينة الأخرى".

في تلك الفترة كتبت رواية "ليالي عربية" وهي رواية، رغم أنها من روايات السجال السياسي، إلا أنها مهمة على صعيد الشكل، ففي هذه الرواية حاولت أن أفيد من الشكل الفني لألف ليلة وليلة لأصنع منه

رواية عربية، فصنعت الرواية التوليدية وهو السرد القائم على القصة التي تولد قصة، ثم أفدت أيضاً من مفهوم الزمن الدوار في ألف ليلة وليلة، وهو زمن يختلف عن الزمن الأرسطي الغربي القائم على زمن يسير إلى الأمام دائماً مهتدياً بالمنطق الأرسطي، مقدمة صغرى، فكبرى فنتيجة. وفيما بعد وحين كنت أتأمل تجربتي هذه اكتشفت أن هناك اختلافاً حقيقياً بين مفهومي الزمن الشرقي والزمن الغربي، فالزمن الغربي القائم على نتيجة نفعية، هو محصلة لا بد أن يصل إليها المبدع والمتلقي برهاناً على ما قدم من عرض، فتعقيد وذروة، وانتهاء بالتطهير، أو النهاية السعيدة التي تريح المبدع والمتلقي.

أما مفهوم الزمن الشرقي القائم على السرمدية، أي بلا بداية ولا نهاية، فالزمن مفتوح لم يبدأ بالبيغ بانغ أو الانفجار الكبير، وسينتهي بعودة المشيح أو المسيح، ثم القيامة.

مفهوم الزمن الشرقي (ولنلاحظ تجليه الأكثر ظهوراً لدى بعض الفرق الإسلامية) التي تؤمن بأن كل شيء يتم في هذا العالم، كل فعل، كل خطيئة، وكل صلاة، وكل نسمة يتنسمها إنسان مكتوب في الكتاب المسطور، أي قبل أن توجد البشرية أصلاً وهذا يعني أني حين أقوم من مقعدي، وقيامي هو الحركة الأولى، ثم أتجه إلى ذلك الباب وهو الحركة الثانية، أما حين أفتح الباب، ففتح الباب ليس الحركة الثالثة، بل الحركة ما قبل الأولى لأنها الحركة المكتوبة بالكتاب المسطور قبل أن تولد البشرية.

هذا المفهوم للزمن الدوار، الزمن حيث لا قبل ولا بعد، الزمن الذي جعل الفنان التشكيلي الإسلامي ينشئ وحدته الزخرفية فيكمِّلها أي

يوصلها إلى الكمال، ثم لا يبني عليها مقدمة كبرى، بل يضعها جانباً، ثم يبدأ وحدة زخرفية أخرى، فأخرى إلى ما لا نهاية، إنه الزمن الدوار المفتوح، السرمدي، اللاقبل واللابعد، والمخالف تماماً لمفهوم الزمن الأرسطي.

هذه السرمدية يمكننا أن نلاحقها في الغناء، يا ليل يا عين إلى ما لا نهاية، يمكننا أن نلحظها في الشعر التقليدي حيث البيت الكامل الشامل الحكمة والمكتفي بذاته، فهو ليس مرقاة إلى قصيدة ذات عمارة صارمة، فالقصيدة ليست إلا مجموع الأبيات، كما البشر ليسوا إلا مجموع الآحاد، والزمن ليس إلا مجموع الأيام.

أفدت من زمن ألف ليلة وليلة، ثم راجعت نفسي بعد هذه الروايات وتساءلت: ولماذا أدرت ظهري للمكان، وأجمل ما لدى داريل وماركيز وفولكنر ومؤلفي ألف ليلة وليلة كان المكان، فلم انسقت مع التيار الشاموي في الإشاحة عن المكان، وأخيراً وصلت إلى قناعة وهي أن الشاميين الذين لم يحتملوا فكرة سايكس بيكو آلهة القرن العشرين في صناعة الأوطان، فحاولوا جاهدين التغلب على هذين الموظفين المؤلهين، ولمّا أخفقوا سياسياً وعسكرياً أنشأوا أحزاباً لا حلم لها إلا التغلب على السيدين سايكس وبيكو، ولهذا نرى أن كل الأحزاب التي نشأت في سورية تحديداً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كانت تتعامل مع سورية على أنها وطن مؤقت، هي في سبيلها إلى تجاوزه والتغلب عليه بدءاً من القوميين السوريين وحتى الإخوان المسلمين.

أداروا ظهورهم للوطن المفروض وتعلقوا بالوطن الحلم المنتظر، فكانت النتيجة أنهم حين كتبوا أغمضوا عيونهم عن المكان، فالكتابة

عن هذا المكان، عن الوطن المؤقت خيانة للحلم، وهكذا غاب المكان، ولسبب ما وجدتني أذكر الطفولة، وأذكر حي القنوات الذي هجرته كما هجر معظم الدمشقيين أحياءهم التاريخية، ذكرت حي النوفرة حيث كانت مدرستي الابتدائية، واستيقظ الجامع الأموي الذي لم يكن معبداً فقط، بل كان ملعباً للطفولة ومكاناً للغداء ومطاردة الحمام.. وبدأت كتابة روايتي الطويلة "التحولات" بثلاثة كتبها "حسيبة" و"فياض" و"هشام".

في واحدة من المقابلات التلفزيونية التي أجريت معي وكان محاوري الشاعر الكبير شوقي بغدادي، سألني عن أصول شخصياتي الروائية ومدى واقعيتها الخارجية، أو أنها كاملة الخيالية، فصمتُّ قليلاً، ثم تذكرت نبات زينة نسميه في دمشق بالشاب الظريف. هذا النبات يتكاثر بواسطة بذرة سوداء بحجم نصف أو ربع حمصة، فقلت: لو أمسكت بيدي هذه البذرة السوداء، فهل أستطيع رؤية الأوراق الخضر والورود الحمر التي ستنبثق عنها. لو رأيتها وأنا لا أعرف بذرة ماذا هي، فما هي بالنسبة لي. إنها بذرة سوداء فحسب، ولكن أعطها حظها وادفنها في التراب وأعطها بعض الماء وبعض الدفء وبعض الضوء والكثير من الصبر والترقب والحنان فإذا بك تفاجأ بالتراب ينشق عن قلبين أخضرين ما يلبثان أن يمتدا ويكبرا ليصبحا نبتة تحمل الورود الحمر، ولكن نعود إلى السؤال: هل الورود الحمر هي البذرة السوداء؟ بالطبع لا، فالورود هي البذرة السوداء مضاف إليها الماء والهواء والنور والاحتضان الطويل في بطن التربة، ولنقلب السؤال: أكان يمكن لهذه الورود الحمر أن تتكون لولا البذرة السوداء؟ ويعود الجواب بالطبع

لا، فلا بد لكل وردة من بذرة، ولا بد لكل بذرة لتكون وردة من احتضان طويل وحمل طويل وبعض الماء والهواء والتراب..

وهكذا ولدت شخصيات روايتي الثلاثية التحولات بكتبها حسيبة وفياض وهشام.

بعد اختتامي لرواية التحولات في رواياتها الثلاث توقفت لفترة غطست فيها في الكتابة للتلفزيون، ولكن الرواية المطبوعة بحرية إبحارها في عوالم لا يجرؤ عليها التلفزيون كانت تخزني، وكانت المآسي الكبرى التي مررنا بها منذ ثمانينيات القرن الماضي وحتى الآن تقودني إلى السوداوية: لماذا حفل تاريخنا بكل هذا الكم من الطغاة؟ فمقابل نور الدين، وصلاح الدين كان لدينا العشرات من الطغاة، والطغاة الصِغار حتى الصَغار، فمن بيبرس وحتى عبد الله الجزار وضاهر العمر تاريخ من البؤس، فأخذت أبحث في جذر الطاغية العربي، هذه الظاهرة التي لم يعد لها ما يماثلها في التاريخ العالمي، وأخذت أبحث في مقابل الطاغية العربي عن جذر مدينة الأحلام العربية، أو الإسلامية، اليوتوبيا التي هربوا إليها روحياً، وهكذا كتبت رواية "فخ الأسماء"، التي غاصت في العصر المملوكي، ثم تابعت البحث في التاريخ المعاصر فكتبت رواية "لو لم يكن اسمها فاطمة" التي طبعت طبعتها الأولى في القاهرة دار الهلال ثم أعيدت طباعتها في بيروت، ثم كتبت رواية "صبوات ياسين"، وفيها حاولت قراءة المسؤولية عن وجود الطاغية، أهو الطاغية نفسه، أم المجتمع الذي ما يزال يحن إلى المستبد العادل/ الطاغية. ثم كتبت رواية: "رقصة البهلوان" وهي قيد النشر الآن، وهي رواية تحاول الحفر عميقاً ثانية في جذر خيانة الحلم،

وخيانة الرسالة، وخيانة الجمال، هذه الخيانات التي جعلت المجتمع يقع في حضن الطاغية.

ما بين "ملكوت البسطاء"، و"رقصة البهلوان" كانت رحلة بحث جمالية عن مجتمع يحاول دخول العصر، ويسأل أسئلة العصر، ولكنه لا يجيب حتى الآن إجابات العصر، بل يلجأ إلى إجابات جربها الماضون، وأخفقت، ولكنا ما نزال نصر على أن الخطأ في الجواب، وليس في السؤال، وإلا، فلماذا كانت يوتوبيات الحضارة الإسلامية في مجملها يوتوبيات دينية بدءاً من يوتوبيا الحسن الصباح وحتى مدينتي التقى الخياليتين جابرصا وجابلقا اللتين أخذتا تجليهما في مدينة الطالبان/ اليوتوبيا.. ترى هل نعيش حتى نحصل على جواب لأسئلة كثيرة، أم سيظل إيجاد السؤال الصحيح هو الجواب؟

ألقيت هذه المحاضرة عام 2004 في مؤتمر القاهرة للرواية العربية.

عن الرواية والتاريخ.....

حين قرر المصريون كتابة روايتهم الفنية الأولى كتب حسين هيكل رواية "زينب"، ومن الملاحظ أنه اختار لها مسرحاً الريف المصري واختار لها علاقات هي علاقة البنت الفلاحة بالغني المصري، وتداعيات هذا الموتيف.

طبعاً سيلاحظ كثيرون على الرواية أنها ميلودراما عاطفية كتبت كثيراً في اللغات الأوروبية، وسيلاحظ آخرون أن هيكل لم يكتف باستعارة الشكل الروائي من الرواية الفرنسية، بل استعار أيضاً علاقة العاشق بشيخ القرية، واعترافه له، وهذه علاقة غير مألوفة في الثقافة

الإسلامية والنصوص الإسلامية، فمقولة الثقافة الإسلامية الشهيرة إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا، لا فاعترفوا ليحلَّكم رجل الدين من خطيئتكم. ولكن ليس هذا غرضنا في هذا البحث، فغرضنا الأساسي هو أن حسين هيكل حين قرر كتابة رواية اختار لها الريف المصري مكاناً، بعلاقاته الريفية المصرية.

أما السوريون، فحين قرروا، وكلمة قرروا كبيرة، فكأنها تعني أنهم اجتمعوا، واتخذوا قراراً، ولكن. لا.. فأنا أقصد أنهم حين وصلوا اجتماعياً إلى مرحلة صاروا فيها في حاجة إلى فن الرواية أداة للتعبير عن وضعهم المديني تقدم معروف الأرناؤوط بكتابة عدة روايات تاريخية من التاريخ الإسلامي، بادئاً بسيد قريش، ومروراً بـ عمر بن الخطاب وفاطمة البتول التي صنعت له مجداً أدبياً كبيراً في حينه، والسؤال الذي لا بد أن يلح على متابع هذه المسيرة هو: ما الذي جعل الثقافة المصرية تختار الريف المصري والعلاقة الريفية موضوعاً للرواية، وما الذي جعل الثقافة السورية ممثلة بمعروف الأرناؤوط تلجأ إلى كتابة رواية عن مكان بعيد ربما لم يره، ولم يزره في حياته معروف الأرناؤوط قط؟ فما بلغني عنه أنه كان رجل حياة ومتع، ولم يكن رجل تقى وحج، ما الذي ألجأه إلى اختيار ذلك المكان الذي إن زاره (افتراضاً) حاجاً أو معتمراً، فلقد زاره سائحاً زيارة غير كافية لتمثله ذهنياً وجعله مسرحاً لروايته؟

و.. لم يكتف معروف باختيار مكان بعيد لا يعرفه، بل واختار شخوصاً (صحيح أنهم قمة القداسة والتقديس) ولكنه لا يعرفهم معرفة تمكنه من جعلهم مادة فنية لروايته.

ونعود إلى الملاحظة. المصري اختار مكاناً يعرفه جيداً، القرية وعلاقاتها، وشخوصاً يعرفهم جيداً، فهم معاصرون له.

أما السوري، فقد اختار مكاناً لا يعرفه، وشخوصاً وعلاقات سماعية، أو قرائية، ولكنها ليست شخوصاً يعرفها، ويستطيع تكييفها كما تشاء الخطة الروائية.

طبعاً أنا أعرف أن كثيرين سيحدثونني عمَّن قبل هيكل في الرواية المصرية وعمَّن قبل الأرناؤوط في الرواية السورية، ولكني أتحدث عن رواية قريبة من الرواية المتعارف عليها فنياً، وليس عن الإرهاصات المليئة بالأخطاء البنائية، والإقناعية.

على أي حال نعود إلى السؤال: ما الذي جعل المصري يختار المكان الواقعي المألوف، والسوري المكان البعيد المتخيل، ولكن المقدس. طبعاً كان كل منهما يعرف مخاطبه، ويعرف تقريباً ما يريد، فالرجلان كانا ابني ثقافتيهما، ورؤيتها لنفسها ولطموحها، وهمومها.

أما المصري فهو ابن وطن مستقر جغرافياً، واجتماعياً، وعلاقياً. فالمصري منذ عدة آلاف من السنين كان يعرِّف نفسه حين يسأل عن هويته بقوله أنا مصري، ثم ينزل في الدرجات فيقول قبلي أو بحري، ثم يذكر اسم مدينته أو قريته، لذلك رأينا هيكل وهو ابن مصر والثقافة المصرية المستقرة، القابلة بنفسها، والعارفة لنفسها يختار راضياً قرية يتفق الجميع على أنها تمثل مصر، ويختار فلاحة تمثل معظم فلاحات مصر، ويختار شاباً يمثل الجيل الصاعد من أبناء الفلاحين الأغنياء الذين درسوا في فرنسا إن لم تخنِّي الذاكرة، وعاد ليدخل في تلك العلاقة الميلودرامية العاطفية.. فأقنع معاصريه بما كتب، وأقنع من

تلاهم بأنه يكتب عن شيء متفق عليه مصر (القرية، الفلاحة، الفلاح الصاعد، الصراع).

ونعود إلى السؤال: لم جعل كل من المصري هيكل، والسوري أرناؤوط من فن الرواية تعبيراً عن علاقته بالمجتمع والتاريخ، والتجربة البشرية بهذه الطريقة الكتابية؟

في مقدمة كتابه "الرواية التاريخية" يقول لوكاتش: "نشأت الرواية التاريخية في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك زمن انهيار نابليون تقريباً".

إنه إذاً زمن سقوط الحلم، الثورة البورجوازية الفرنسية بوعودها وخضَّها للعالم المعروف في حينه أي أوروبا والشرق العربي، وبدء ظهور الرجعية الأوروبية الميترنيخية، وحطِّها على كلكل العالم، في محاولة لاعتبار الثورة البورجوازية الفرنسية، وكأنها خطأ تاريخي يجب أن يزول من الذاكرة، فالمَلَكية خالدة، والكنيسة خالدة، والنظام الإقطاعي النبالي خالد.

أنا.. أعتقد أن الكتَّاب وهم من يعملون أصلاً في عالم الحلم والخيال، لا الواقع المادي الصارم قد بدأوا الرد على ميترنيخ، وعلى لويس الثامن عشر بالكتابة عن التاريخ الأجمل من الحاضر.

والسؤال الذي لا بد أن ينبثق عن مقدمة كهذه هو: متى ظهرت الرواية التاريخية في الأدب العربي، ولماذا؟

هل نقول إنها ظهرت مع جرجي زيدان، فإن كانت قد ظهرت مع جرجي زيدان، فلماذا؟

أعتقد أن علينا أن نذكر أن حلم محمد علي كان قد انتهى منذ حوالي أربعين عاماً قبل كتابة أول رواية لجرجي زيدان، وعلينا أن نذكر أن ما انتهى ليس حلم محمد علي بإعادة إيقاظ الدولة العربية، وإنما سقوط دولة الحلم المركزية مصر تحت الاحتلال الإنكليزي، وعلينا أن نتذكر أن جرجي زيدان كان قد جاء من الشام الخارجة من حرب أهلية دينية فهرب إلى مصر حيث لا كنيسة متخشبة، ولا مفتين متخشبين، وحيث تلاميذ الطهطاوي يحصدون ما بذر.

وأعتقد أن زيدان حين بدأ كتابة رواياته التاريخية، كان قد عرف بما فعل الكتَّاب الفرنسيون والإنكليز في استحياء، العودة إلى ما قبل العتمة الميترنيخية عبر الكتابة عن الزمن الجميل، روبن هود، إيفان هو، الفرسان الثلاثة.. إلى آخره، فقرر أن يمتح من التاريخ العربي الإسلامي، ويعيد تذكير الأجيال الجديدة بما كان لذلك التاريخ من محاسن ومساوئ، ولكن الجمهور، والجمهور التالي، ثم الأكثر تلواً أخذ يحاسب الرجل الذي لم ينظر إلى التاريخ على أنه صفحة بيضاء لا عكر فيها ولا دنس، بل نظر إليه على أنه تاريخ فيه البياض وفيه السواد، فقام بعض الزمِّيتين بمهاجمته، ولكن هذا ليس شأننا اليوم في هذه الندوة.

فشأننا كما أعتقد هو الحديث عن الرواية التاريخية المعاصرة الآن في سورية، ولماذا تكتب؟

لا شك أن من سنعرِّفهم فيما بعد باسم السوريين، لم يكونوا في بدايات القرن العشرين يسمون أنفسهم بالسوريين، فقد كانت المدينة، أو الطائفة، أو القبيلة هي المسمى الشائع ضمن إمبراطورية آل عثمان،

وفجأة تقوم الحرب العالمية الأولى وتسقط الإمبراطورية الخالدة خلود التاريخ، فأجيال إثر أجيال لم تعرف إلا السلطان العثماني، ويجد من سيسمون بالسوريين أنفسهم تحت احتلال فرنجي، وانتبهوا معي إلى المصطلح. إنه استعادة فرنجة الصليبيين وليس فرنسة الكولونيالية، ويبدأون بعد سُنَّيات ما ستسميها أدبياتنا بالثورة السورية التي كانت إيديولوجيتها الأساسية ليست ماذا نريد من الثورة، بل ماذا لا نريد، وما لا نريد كان الاحتلال الفرنسي. وماذا بعد؟ لا جواب.

المهم. اكتشف سكان هذا الإقليم الذي سيسمى سورية أن الثورة المسلحة انتهت، فالعدو أكبر وأقوى من شراذمهم غير المسلحة جيداً، وغير المنظمة جيداً، وذاكرة المتنفذين بينهم لا تعطيهم مثالاً عن الحكم، ولا العاصمية، ولا الوطنية تجمعهم ويقرون لها، و.. قفز إلى الذاكرة الحلم القديم.. الوحدة التي قادتها الحجاز المسلمة، وهكذا تقدم معروف أرناؤوط ليكتب عن محرض الحلم، وصانع الحلم، وسيد الحلم سيد قريش.

إذاً، كان معروف أرناؤوط حين كتب سيد قريش شديد الصدق مع نفسه، ومع مجتمعه، وربما كان هذا ما أعطاه ذلك الرواج الكبير في حينه، فهو لم يكن ملتصقاً بأرض وطن سيسميه الحلفاء لسورية ورجل الشارع العادي لا ذاكرة له عنها، فما هي هذه "الجزيرة" التي ألصقت بوطنه الصغير، وما هذه الحلب البعيدة، وما هذه الطوائف الصغرى التي ألصقت بالوطن الحلم. فالوطن الحقيقي هو وطن الذاكرة/ الحجاز، والأحداث التي يمكن أن تتكرر وتصنع وطناً هي أحداث الحجاز، وحتى حين يريد الكتابة عن صانع الدولة، وصانع العدل فإنه لا يرى

أحداً ممَّن حوله، ولا من ذاكرته القريبة فذاكرة الألف سنة السابقة لا تحفل إلا بالحكام الأغراب، القساة، الجياع، النهمين إلى النهب، و.. يقفز عمر بن الخطاب.

أليست هذه صورة عجيبة لعلاقة ذاكرة بوطن، أليست هذه صورة غريبة، بل شديدة الغرابة أنك تستعرض كمثقف تاريخاً لتصنع عنه كتابة تاريخية، فلا تجد إلا تاريخاً لأشخاص لا تعرفهم، وأحداث لا تعرفها، وأماكن لا تعرفها..، إنها هناك.. في الحجاز البعيد.

هذه الذاكرة نافية المكان، ونافية الحكام الذين مروا على المكان هي ما صنعت، وستصنع أهم تيارين سياسيين سيسيطران على المنطقة وأعني التيار العروبي، والتيار الإسلامي، اللذين سينعكسان في أن سورية لم تصدر في القرن العشرين وحتى الآن حزباً سياسياً واحداً يعلن أن سورية وطني، فالكل يؤمن بأن سورية المعاصرة وطن مؤقت على طريق تحقيق الوطن الكبير.

على الجانب الآخر سنرى الكتابة الشعبية، وأعني فن السيرة وهي رواية مبكرة، ومن الغريب أن أكثرها كتب أيضاً في مصر، فسيرة الملك سيف بن ذي يزن تصدم القارئ، فلم اختار كتَّاب أو كاتب هذه السيرة شخصية مثل سيف بن ذي يزن؟ وهو شخص يمني، أي في مكان شديد البعد عن مصر وقد استعان تاريخياً بالفرس لطرد الأحباش عن جزيرة العرب، وهو على ما يُعتقد يهودي حين لم تكن اليهودية منفوراً منها كما هو حالها اليوم بسبب الصراع السياسي مع الصهيونية.. ما الذي ذكَّر كتاب السيرة بشخص كهذا في زمن الحروب الصليبية؟ ولكنك إذا ما أعدت قراءة الفترة، فاكتشفت عنف الصراع

مع الصليبيين في فلسطين، واكتشفت أن النوبيين المسيحيين قد أرسلوا فرساناً متطوعين للحرب مع الصليبيين الفرنجة ضد المصريين والشاميين المسلمين، ثم قرأت عن الحجاج الأثيوبيين إلى القدس تحت الحكم الصليبي، فيتعرض لهم الغوغاء في القاهرة، ويؤذونهم، وربما قتلوا بعضهم، فيغضب ملك الأحباش سيف أرعد، ولننتبه إلى أن اسمه كان سيف أرعد، ويهدد بقطع النيل عن مصر إن لم توقف سفهاءها عن أذى الحجاج الأحباش.

هاه.. الآن بدأت الصورة تتضح.. تهديد حبشي بقطع شريان الحياة عن مصر، واحتلالها. يقوم به ملك حبشي اسمه سيف أرعد، فيستدعى اسم سيف أرعد اسم سيف آخر واجه المأزق نفسه في الصراع مع الأحباش وهكذا ولدت رواية سيرة سيف بن ذي يزن في قيام ملك عربي للدفاع عن الوطن المسلم، فسيف حسب السيرة إبراهيمي مسلم ضد العدو الحبشي المهدد مرتين.

المهم.. الذاكرة الشعبية المصرية تبنت سيف بن ذي يزن وجعلته مصرياً يدافع عن مصر ونيلها، فارتبطت بالأرض ثانية وبالمكان، الأمر الذي سيكرره معروف أرناؤوط حين يواجه الفرنسيين الأقوياء، فيستدعي مكة وأبطالها ليذكر معاصريه أن الوطن (المتخيل) الحجاز لديه أبطال سيقاومون ويحطمون الغازي القوي.

وعلى أي حال فما بين البورجوزاي المتنوّر شكيب الجابري، الذي كتب عدة روايات ينتمي معظمها إلى مفاهيم الجدل بين الشرق والغرب ولو متخذاً شكل العلاقة العاطفية إلى عبد السلام العجيلي الذي فتننا بقصصه القصيرة، وشدَّتنا رواياته التي عالجت في معظمها هموماً

محلية إلى هجمة الرواية التاريخية التي رأينا تزايدها الشديد منذ الثمانينيات، ويكون السؤال شرعياً. لماذا؟

قبل كل شيء علينا أن نميّز بين نوعين من كتَّاب الرواية التاريخية في سورية، فهناك الكتاب الكسالى الذين اعتادوا الاتكاء على مشجب رواية الالتزام التي فرضت مفهومها للكتابة خمسينيات القرن الماضي وستينياته، وحوَّلوا، بالتالي، الكتابة الملتزمة إلى كتابة ميكانيكية. مستغِّل، ومستغَّل. وانتصار المستغَّل الحتمي على المستغل الفاسد، هؤلاء الكتاب أنفسهم، فإن لم يكونوا بأنفسهم، فبنموذجهم استسهلوا كتابة الرواية جاعلين الصراع الميكانيكي بين الفرد/ الوطن/ الطبقة/ الطائفة/ المدينة.. إلخ مع التاريخ (الغازي الفرنسي أو الغازي الصهيوني).. إلخ. ثم قرأوا بعض المراجع التاريخية المكتوبة بنزعة وطنية عن تلك الفترة، ففرطوا وأرجو أن ننتبه إلى كلمة فرطوا، نثروا. أضافوا الكثير من الهواء أو الماء إلى المادة الصلبة للتاريخ فصنعوا رواية تاريخية مكتوبة بميكانيكية ظريفة ينتصر فيها دائماً الضعيف على القوي والمقهور على القاهر، فإن لم ينتصر الآن، فهو منتصر غداً بالتأكيد.

والنوع الثاني من كتَّاب الرواية التاريخية هم أولئك الذين يمتلكون أصلاً مشروعاً روائياً خاصاً بهم، ثم قرَّروا استخدام شكل الرواية التاريخية مادة لكتابة روايتهم لاستكمال مشروعهم الروائي، ومن أهم هؤلاء الكتاب كان الصديق نبيل سليمان في رباعيته "مدارات الشرق"، ثم في وليدتها ومستلَّتها "أطياف العرش".

في "مدارات الشرق" يبدأ نبيل روايته الأشرعة التي لم تكن توحي لقارئها بأنها ستكون الفاتحة لموسوعته مدارات الشرق، بل هي رواية تتحدث عن الفترة المفصلية في حياة سورية، وأعني الحرب العالمية الأولى التي كانت المفتتح لدويلات ودول كثيرة ستنشأ عن تفتت ذلك الماموث الذي لم يستطع أن يتحول فيلاً، أعني الدولة العثمانية. هذه الفترة التي عرف، وشعر كثير من الكتاب أنها البداية والمفتتح، فكتب معظم الروائيين الجادين عن تلك الفتر، يحاولون عبر قراءتها قراءة ما الذي تم على هذا الوطن؟ ومن؟ وما الذي صنعه؟ ومن بُناته؟ وإلى أين وصل؟ وما طموحنا فيه؟ وإلى أين نريد الوصول به؟

يبدأ نبيل روايته بالحديث عن العائدين من السفربرلك الحرب العالمية الأولى إلى دمشق، وهم ياسين الحلو، وراغب الناصح، وإسماعيل معلا، وفياض العقدة، وعزيز اللباد.

وحتى تتضح لنا خطة نبيل سليمان من كتابة روايته هذه، وهي خطة وحيدة حتى الآن في الأدب السوري، وهي محاولة الإحاطة بالوطن الجديد سورية من كل مفاصله، وعبر كل تشكيلاته، المدينية، والبدوية، والفلاحية، والطوائف الصغيرة فيه. وكان في محاولته هذه شديد الطموح، وشديد البحث، فكتابة نص كمدارات الشرق يحتاج إلى بحوث مستفيضة، ودراسات معمقة عن تاريخ الربع، أو الثلث، أو النصف الأول من القرن العشرين، دراسات تلاحق تشكلاته القبلية في تحولاتها من البدوية الصرفة في تراتبيتها الطبقية الصارمة، مشايخ الدم وعلاقتهم شديدة الالتصاق بقبائلهم إنْ في الفرات والجزيرة، أو في الجولان، إلى ما يقارب الحالة الريفية/ المدنية المبكرة مروراً إلى التبدلات المدينية في دمشق وريفها، إلى طائفة كانت غامضة عن

الوجدان السوري، منعزلة عنه، ومعزولة عنه، أعني الطائفة العلوية، وقد كان نبيل جريئاً في التحرش بنقطة حساسة جداً في تاريخ الجبل الذي أفضل تسميته باسمه التاريخي جبل السماق، أو جبل الحلو، والانشقاق الكبير الذي تم في جسم الطائفة في ذلك الحين، وفي الدعوة إلى إنشاء دويلة طائفية خاصة بهم، وحتى الحديث عن الطائفة الأخرى في الجنوب السوري في نزعة بعض أفرادها الانتحارية إلى تشكيل وطن خاص صغير بهم.

هذه المقاربات التي أقدم عليها نبيل، أولاً في محاولة الإحاطة بكل سورية الجديدة، وتغطيتها روائياً في رباعيته هذه، في قسوته المبضعية في الكشف عن الآلام الدفينة والخفية لمجموعات عانت كثيراً من القسوة. والحقيقة أن الجميع عانوا منها، ولكن بعضهم كان يعتقد أني بما أني أشارك الحاكم في معتقده المذهبي، فأنا من الحكام، وليس من المظلومين المحكومين، وأعني علاقة الأكثرية بالنظام العثماني الذي كان شديد العدل في توزيعه الجهل والحرمان والإفقار على الجميع غير مبال بالتباينات المذهبية.

اختار نبيل شخوصه ممثلين لما كان الفسيفساء الشامي التاريخي. كاشفاً عن حسنات ومساوئ كل ممثل لكل مجموعة، فكشف الجرح أدعى للشفاء دائماً من تغطيته وترك العفن والقيح يفعلان فعلهما في القرح المستور وكان في مطولته هذه يعمل في دأب وإلحاح ليترك لنا هذه المدونة التي يحق لكل قارئ فينا أن يختلف مع هذا الجزء، أو ذاك، ويحق لكل قارئ أن يبدي إعجابه الشديد بتصميمها المعماري والشغل عليها، كما يحق لكل قارئ أن يعترض على بعض الانكسارات المعمارية فيها.

وأنا (كاتباً روائياً) لا أزعم ولا أبغي أن أكون الناقد، أحيي مشروعه الريادي هذا في قراءة سوريا عبر مدونة روائية مطولة.

طبعاً سيتقدم كثيرٌ من الروائيين السوريين بالقول إنهم حفروا حفراً أشد عمقاً في ذلك الجزء من سورية، أو ذاك، وسيتقدم كثيرون بالقول إن الرواية جمال أكثر منه تاريخاً وبحثاً، ولكني أصر على أن رباعية نبيل سليمان كان لها شرف الريادة والخروج من القروية المحلية، أو المدينية، أو الطائفية إلى السورية.

طبعاً مع نبيل سليمان، وقبل نبيل سليمان، وبعد نبيل سليمان حاول كثير من الكتاب السوريين كتابة رواية سوريا مدينياً، أو جبلياً، أو بدوياً، وهو الأندر، والسؤال الذي سنختم به كلمتنا هذه. ما الذي جعل المصري حسين هيكل يجعل من الريف المصري والشخصيات المصرية مادة لروايته الفنية الأولى زينب، وجعل معروف أرناؤوط يهرب من دمشق، ومن سورية، ومن الشام كلها إلى بلد بعيد هو الحجاز، ليس الواقعي، بل المتخيل فقد انقضى على حجاز البعثة وصدر الإسلام أربعة عشر قرناً تغير فيه كل شيء.

والجواب كما أعتقد هو أن السوريين الذين حبسوا في وطن لم يتخيروه، ولم يصنعوه، ولم يظنوا أن يكون قفصهم بعد طول انسراح في الوطن الإسلامي العثماني، والعربي اجتماعياً وتاريخياً، أموياً وعباسياً، طلبوا المملكة العربية على يد الشريف حسين، فحصلوا على بليدات حملت أسماء انتزعت من التاريخ الكلاسيكي لم يسموها، ولم يختاروها، سوريا، فلسطين، الأردن، لبنان إلى آخره.

كانوا كما شبهتهم مرة أشبه بالحسون، ذلك العصفور الحرُّ البريُّ الجميل الذي وجد نفسه فجأة حبيساً في قفص بحجم قلب، فضرب قضبان القفص بصدره العاري يريد الخروج، وللحقيقة، فإن تسعة من كل عشرة حساسين مأسورة تموت على قضبان الأقفاص، ولنذكر الكم الهائل من السوريين الذين استشهدوا على قضبان فلسطين والجزائر و.. العراق.

ولكن واحداً من هذه الحساسين لا.. يموت.. بل يأكل من حبِّ القفص، ويشرب من مائه، ثم.. بعد أيام أو شهور يبدأ استكشاف المكان الذي سيقضي فيه بقية العمر أعني القفص وهذا كان قدر الشاميين الذين سموا على غير رغبة منهم بالسوريين حاولوا الخروج من القفص، ولكن القضبان كانت أقوى من صدورهم العارية.. وأخيراً بدأوا استكشاف القفص، فبدأوا كتابة قراءة الوطن.. الرواية التاريخية.

ألقيت هذه المحاضرة عام 2010 في القاهرة.

عن الفارس فارس زرزور....

محاولة لقراءة الإنسان من خلال النصوص

في نكتة اعتاد المرحوم فارس زرزوز الروائي الجميل، ممثل جيله التمثيل الأكمل في خروجه من قاع الفقر، واستفادته من فسحة التعليم المجاني التي منحت لأبناء العالم الثالث كله في ربع القرن الثاني والثالث من القرن العشرين، فأفاد منها من كان حظه طيباً وأحرق المراحل لينتقل من المهن الفقيرة المفقرة إلى المهن الرابحة المربحة الطب والهندسة والمصارف و.. الالتحاق بسلك الضباط إلى آخر ما قدم التعليم المجاني لأبناء الفقراء من فرص.

في تلك النكتة يحدث فارس عن نفسه في أنه وفي أثناء دراسته في الكلية العسكرية، وأثناء التدرب على ركوب الخيل وقف أمام مدربه على حصانه شامخاً متسامقاً، فسأله المدرب: ما اسمك يا طالب، فقال يصرخ كما علموه في دورة الأغرار في الكلية العسكرية: فارس يا سيدي، فابتسم المدرس سعيداً بهذا الفارس فارس وأمره بالكر، وكرَّ، ولكن الحصان لم يكن شديد الود كما يبدو، فطرحه أرضاً، فتماسك واعتلاه، فطرحه، وسمع ضحكات الآخرين، ولكنه ابتلعها، وأكمل المحاولة والسقوط، وأخيراً عاد به الحصان إلى حيث المدرب الذي

سأله: ما اسمك يا طالب؟ فقال الطالب، وقد أحنى كتفيه وضم ذراعيه في هزيمة: زرزور يا سيدي.

هذه النكتة التي تلخص مسيرة حياة صديقنا الروائي المرحوم فارس زرزور وتلخص نوسانه الحياتي الذي لم يتوقف بين الفارس الذي طمح إليه، وبين الزرزور الذي كانه الولد البائس الفقير، ابن الدكنجي البائس، الذي لم يجد حقلاً لتجارته المسرفة إلا قرية في حوران ربما تلك التي سماها في رواية المذنبون بالصيرة. حجارة بركانية سود رصفت فوق بعضها البعض، بقايا من بركان، وبقايا من مدن وقرى أثرية، وبقايا من حيوات إنسانية قضى عليها البؤس لتتجمع جميعاً وتصنع قرية، ثم لا يجد هذا المستغل الكبير مكاناً لممارسة استغلاله إلا هذه القرية التي ستقرأ عنها كثيراً في رواياته القادمة، فكان تجمع هذا البؤس كله ذاكرة فارس زرزور.

في ذاكرة فارس المبكرة أن أباه الدكنجي الذي لم يستطع أن ينشئ لنفسه دكاناً في حي الميدان في دمشق، فمضى إلى هذه القرية البائسة واصطحب معه فارس الفتى يساعده في الوكر المسمى دكاناً ويحمل إليه البضائع من البذورية، ومن الحواصلية ومن الميدان في دمشق. يشتريها، ويحملها على ظهره ليوفر أجر النقل، ثم يحملها في الباص الذي لا يتوقف عادة في القرى الصغيرة، فكان عليه أن يعيد حمل الحمولة هذه من الطريق العام إلى القرية، وهكذا قرأ فارس تاريخ وجغرافية المكان البائس، و.. كرهه كما يكره كل معذب أداة تعذيبه، وحين يقفز به الزمان ليصبح الفارس بدل الزرزور، ويشمخ بصدره

ضابطاً، سيحاول إلغاء تلك المرحلة من ذاكرته، ولكن الزمان لن يحفظ على فارس فروسيته.

أما عن بيته في دمشق، بيت أبيه، فلنسمعه يصفه في مذكراته التي نشرها في جريدة الثورة في منتصف الثمانينيات واقتبس منها الصديق الناقد عبد الرحمن حلبي في كتابته عن فارس زرزور في الموسوعة العربية وها أنا بدوري أوردها الآن:

"بيت ترابي طيني بغرفتين اثنتين، وهو يفتقر إلى الماء والكهرباء، وبيتنا خال من الأثاث إلا من بساطين، ووقود بيتنا الحطب والكاز، وفي بيتنا مصباحان زيتيان. نمرة ثلاثة للضيوف، ونمرة واحد لسهرتنا، ننقله من غرفة إلى أخرى عند الحاجة، وماؤنا ننقله من صهريج الفيجة في رأس الحارة، ولكن يجب أن أضيف أن في بيتنا بئراً عليه مضخة نستعمل ماءه في الغسيل والاغتسال، والشطف وسقي الدالية".

بعد سنوات بيت الأهل في الميدان، وسنوات الدكنجي الخارق في القرية التي سميتها افتراضاً بالصيرة. كان فارس يتعلم وبصعوبة، فالفقر ومطاردة الرغيف لم تكن تترك له الوقت الكافي لإحسان التعلم إلا أنه نال الشهادة الابتدائية أو الإعدادية، ثم أتيحت له فرصة العمل، فعمل معلماً وحيداً في قرية في أقاصي الجزيرة. هذه القرية سنعرف أن اسمها "تل علو" لأني قرأت هذا على الغلاف الخلفي لروايته "الحفاة وخفي حنين". وهناك اصطدم فارس للمرة الأولى بالتفاوت الهائل بين أناس العمل في الأرض، أنصاف الفلاحين، أنصاف البداة، وبين أناس المكاتب والورق والقصور.

ثروات أسطورية يكسبها أناس يعملون في الزراعة المصنعة آنذاك فيزرعون في الموسم الواحد عشرين إلى خمسين ألف كيس من بذار القمح، فإذا أقبلت السنة وكان الموسم خيراً جنوا عشرين ضعفاً لما زرعوه، فصاروا من كبار الأغنياء، فحملوا ثرواتهم الجديدة (معظمهم على الأقل) إلى كاباريهات حلب وبيروت، ولم يستفد الإقليم من هذا العطاء شيئاً، وكان ذلك أول تفتح الشاب على الواقع الاقتصادي في سورية.

في تلك الأيام الطويلة التي قضاها فارس في محافظة الجزيرة حيث الفراغ الكبير، والانتظار الكبير، للمطر، للموسم، لحلم ثراء مفاجئ. لم يكن أمام المعلم الوحيد إلا القراءة مهرباً من القحط المحيط، فكان يصطحب معه كلما نزل إلى دمشق أو حلب كمية من الكتب كانت مهربه، وكانت سلمه إلى الثقافة وإحسان قراءة الحياة.

أعتقد أن فارس زرزور الفتى غير المسيَّس، وغير الواعي ثقافياً وعمرياً، فهو كما قلنا ابن لدكنجي بائس حتى الإعدام، ولكن.. علينا ألا ننسى أنه دكنجي ومصالح الدكنجي تتناقض مع مصالح الفلاح، بل إن مهنة الدكنجي مهما بلغ بؤسها، تعطيه إحساساً غامضاً صغيراً بالتميز.. أليس الدكنجي هو المقصود، والمبتغى، والمرجو الإقراض حتى الموسم، والمرجو تأجيل الدين وتأجيله، فلعل الدين يموت..

فارس زرزور الفتى المعلم، ولنلاحظ هنا معنى المعلم الابتدائي في ريف الجزيرة في أربعينيات القرن الماضي، حيث بناء المدرسة نفسه بيت بائس من بيوت القرية البائسة لا يميزه عنها إلا خرقة ملونة اسمها العَلَم، وأنا حين أتحدث هنا عن بؤس القرية، فلست أستخدم مصطلحاً

بلاغياً، فلقد مضيت إلى الجزيرة مُدَرِّساً بعد ربع قرن من عمل فارس زرزور فيها، ولم أعمل في القرية، بل في المدينة، وكانت بائسة، وزرت سائحاً (أرجو ألا تضحكوا) عدداً من القرى لا تتميز عن تل علو التي يصفها فارس، وشهدت البؤس المروّع لبيوت من طين كالكهوف، وشهدت حياة معلم القرية الوحيد، وفارس عمل معلماً وحيداً، وشهدت كيف يعلم المعلم الوحيد التلاميذ كلهم المبتدئين ومقاربي التقدم لامتحانات الشهادة الابتدائية، وشهدت كيف أن المعلم الوحيد هو مدير المدرسة، وهو الآذن، الخادم، المنظف ما ترك التلاميذ خلفهم فيها، وهو منسق الدوام والغياب، وبكلمة مبسطة هو الدولة، وهو وزارة المعارف أو التربية بمصطلحنا المعاصر.

في القرية لا مطاعم، ولذا فهو يأكل من طعام أهل القرية الذين لا يعرفون اللحم إلا إن انكسر حيوان، أو مات غني فذبحت على روحه بعض الحيوات الحيوانية ولا يعرفون الخضار، فالجزيرة لم تكن تزرع الخضار، والمكافأة الوحيدة التي يحصل عليها معلم القرية الوحيد، هي صفيحة سمن أو أكثر، حسب كرم أهل القرية، وصفيحة جبن أو أكثر، وبعض جزات الصوف لصنع فراش منها.

هذا المعلم، ولكونه لا ينتمي عشائرياً إلى أهل القرية، يتحول إلى شيء مقدس/ مدنس، فهو معلم وابن حكومة وكاتب عرائض القرية إن لزم الأمر، ولكنه في الآن نفسه لا ينتمي إلى هرمية العلاقات العشائرية، فيعيش ضمن نطاقه الخاص منبوذاً، ويكون رد المعلم على هذا الإقصاء هو معرفته السرية بأنه ابن مدينة، أكابر، وربما اصطنع أسطورة ليميز نفسه خارج هذا الإقصاء، ولكن ما يعنينا من هذا كله هو أن فارس لم يستطع أن يصبح جزءاً من القرية في حوران فتشامخ

عليها في لا وعيه، ولم يستطع أن يصبح جزءاً من القرية في الجزيرة فتشامخ، وانعزل وعُزل عنها.

ثم.. كانت المعجزة. لقد حصل على الشهادة الثانوية، وما إن حصل عليها حتى كان أول ما فكر فيه هو أن ينسلخ عن الماضي البائس كله حيث تزدري العيون الفقير ليصبح ضابطاً، وعلينا أن نذكر نظرات الإعجاب والتباهي التي كان الأطفال والبنات بل حتى الرجال الآخرون يرمقون بها الضباط الأوائل بعد الاستقلال: "أبناؤنا" يقولون في تباه ومتعة، وعلينا أن نذكر الثياب الاستعراضية الجميلة المفروضة على طلاب الضباط في ذلك الحين إذا ما نزلوا إلى المدينة.

التحق فارس زرزور بالكلية العسكرية متخلياً عن المعلم الوحيد، وتخرج ضابطاً ملازم ثان وصار يستطيع الإعلان عن قراءاته، وكانت هناك مجلة اسمها "الجندي" تصدر عن فرع التوجيه المعنوي بالجيش السوري، وكانت توزع على الضباط، وتباع في الأسواق، فقرأ الأدب ورأى أن أناساً يعرفهم يكتبون أيضاً، فبدأ يكتب، وينشر في تلك المجلة التي نشر فيها صلاح دهني، وحسيب كيالي ومواهب كيالي وميلاد نجمة وشوقي بغدادي وعادل أبو شنب وغسان الرفاعي و.. محمد مهدي الجواهري، ثم أخذ يخالط هؤلاء الكتّاب، وبدأ التأثر بالتيار العالمي الغالب في ذلك الحين اليسار واليسارية، ولما كان بسبب ظروفه الأولى الأكثر ترشيحاً للإيمان أن الاشتراكية هي الحل لكل مشاكل مجتمع مثقل بخطايا التاريخ والتخلّف والتجزؤ. وكان يمكن لهذه الحياة الرضية المتصالحة أن تستمر لولا أن كانت الوحدة، وكان الاصطدام ما بين أجهزة الوحدة والأحزاب المختلفة معها و..

سرح الفارس من الجيش فيمن سرح وعاد الزرزور.. الذي يجب أن يبحث عن عمل، ومن يشغِّل مُسَرَّحاً مغضوباً عليه و.. نشر مجموعته القصصية الأولى "حتى القطرة الأخيرة" وصار يعد نفسه كاتباً ويعده المحيطون به كاتباً، وأخذ في تعليق الآمال على الكاتب ليعود الفارس.

ثم كانت مسابقة لتأليف كتاب عن (معارك الحرية في سورية) دعت إليها إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، فيسارع إلى المشاركة في هذه المسابقة، وسيبدأ البحث الجاد المتقن والدؤوب مستعيناً بكل المراجع والمصادر الممكنة، وسيرى أثناء بحثه أن من حمل الحمل الأكبر في كل الانتفاضات والهياجات والثورات التي تمت في سوريا، إنما حملها أولئك الذين لم يقدم لهم الوطن الكثير، ولا يتوقعون عند حصول الاستقلال أن ينالوا الكثير، ولكن شيئاً أصيلاً، شيئاً من ثورة ضد بؤسهم، شيئاً من حلم غامض في اللاوعي الجمعي يقول: إن إسقاط هذا الظلم (الاحتلال الفرنسي والحكومات المتعاونة مع الاحتلال)، هذا الشيء كان يقول إن إسقاط الظلم لا بد أن ينتج شكلاً من أشكال العدل.

في هذا الكتاب/ البحث الذي غطس فيه فارس زرزور في قاع المجتمع متابعاً كل تفصيل من تفاصيل الثورات السورية واضعاً لنفسه مخططاً بدأ فيه من خروج سورية من الدائرة العثمانية على يد الحلفاء الأنكلوفرنسيين المستعينين بالجيش الفيصلي الحجازي الذي التحق به عدد من الضباط والجنود الشاميين، الذين تخلوا عن الجيش العثماني منضمين إلى الجيش الحلم ليفاجأوا فيما بعد أنهم نجوا من الدلف العثماني ليقعوا تحت المزراب الغربي، وهكذا تحوّل كثير من هؤلاء

الضباط الجنود من حرب مع الحلفاء إلى حرب على الحلفاء، وكان منهم الضباط سعيد العاص وفوزي القاوقجي وكثيرون آخرون، وسياسيون كثيرون ألجأتهم الخيانة الغربية إلى الاستعانة بالجماهير الشعبية للقيام بالثورة.

هذه الجماهير المهملة والخارجة عن العمل السياسي، بل حتى العسكرية (الدفاع عن الوطن) وجدت نفسها فجأة وقد صار لها قضية عليها أن تثبت فيها وجودها وكيانها، وهويتها الإنسانية التي تنتقل بها من حيز الرعية (الكتل البشرية)، مجبية الخراج والضرائب ولا شيء آخر، إلى حيز المواطنية والوطنية، والقضية.

لا أعرف عدد أو أسماء من شاركوا في هذه المسابقة، ولكني أعرف اثنين منهم لأنهما طبعا مؤلفيهما: الأول وهو من أحرز الجائزة الأولى وأعني الباحث الدكتور فيما بعد إحسان الهندي وقد طبع كتابه حسب ما وضع على الغلاف: إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي. أما الثاني والذي لم تطبعه إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، بل دار خاصة (دار الشرق) وكان يحمل اسم "معارك الحرية في سورية" لكاتبنا الذي لم تعرفه الساحة الأدبية بشكل عريض في سورية بعد.. فارس زرزور. وكان الطبع عام 1962 وكان تحت العنوان الكبير عنوان صغير يقول: "قصة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية.."، ولنلاحظ إصرار المؤلف على القول: قصة الكفاح الشعبي وكان هذا التعليق على حق لأن المؤلف في وضع كتابه هذا كان قد اكتشف الجانب الآخر أو الجانب المظلم من القمر وأعني الشعب.

في مقدمة روايته المنشورة الأولى "حسن جبل" يقول المؤلف بخط خاص وكأنه خارج سياق الكتاب وبلغة شبه عامية مبسطة:

"سبحان الله.. غلطنا وحكينا حكايتنا إلى صهرنا، قام عمل منها رواية طويلة عريضة مع إنو المسألة بسيطة: قوصنا الآغا، وانحكمنا إعدام، وهربنا من السجن، والتحقنا بالثورة، وتجوزنا بحرمة من حوران أتينا بها إلى الشام، وقامت ضاعت منا قبل ما نصل للدار.. إيه.. القضية بسيطة، ومو ضروري تكتب عنها الجرايد والمجلات.. إلخ".

بهذا المقطع الصغير قدم لنا فارس زرزور مانيفستوه الكتابي. الرواية هي فن الكتابة عن الفقراء والبسطاء الذين لا يعتقدون ولا يظنون أنهم يقومون بفعل بطولي. وعلينا أن نذكر أن حسن جبل بطل هذه الرواية هو حمو فارس زرزور الحقيقي، وعلينا أن نذكر أن جانباً كبيراً من تفاصيل الرواية هي مرويات حسن جبل الحقيقية، وحتى لو لم تكن حقيقية فإن فارس زرزور الذي انغمس طويلاً في عالم حسن جبل خارج حسن جبل، أي في عالم أولئك الفقراء البسطاء الذين خرجوا عن ميوعتهم الكتلوية، كتلة مائعة لا هوية لها ليصنعوا هويتهم الفردية الخاصة بهذا الغضب والاندفاع الرافض للماضي، والراغب في الدخول إلى المستقبل. ولنعد قراءة بعض المانيفستو الزرزوري. المسألة بسيطة. قوصنا الآغا. أي أطلقنا النار وقتلنا الإقطاعي الرازح على صدورنا منذ قرون.

إذن فقد وضع فارس زرزور واعياً، أو غير واع، أعني مستسلماً لمنطق الشخصية التي عمل عليها (حسن جبل) وضع الشرط الأول للتحرر. إنه التخلص من نظام فقد مشروعيته ودوره التاريخي،

وأصبح عبئاً. إنه نظام المقاطعجية العثماني الذي ظل المجتمع محتفظاً به وبالتسمية العثمانية نفسها (الآغا) المقاطعجي. قوصنا الآغا. ولكن ما العقوبة على قتل المقاطعجي. إنه الحكم بالإعدام والسجن، والهروب من السجن و.. الالتحاق بالثورة.

إنه المخطط العام والعالمي للمتمرد.. أليس هذا هو روبن هود الإنكليزي..؟ أليس هو ويليام تل السويسري؟ أليس هذا هو أدهم الشرقاوي المصري؟ إنه متمرد عالمي بأسماء مختلفة، ولنلاحظ أنه دائماً يأتي من قاع المجتمع، القاع الصابر، القابل بمصيره، ولكنه فجأة يصل إلى مرحلة لم يعد يستطيع فيها الصبر، وحين يتخلى عن الصبر يقتل ظالمه، وحين يقتل ظالمه يصبح في مواجهة السلطة، وحين يصبح في مواجهة السلطة يبحث عن أمثاله، وحين يجدهم تكون الثورة.

في رواية حسن جبل التي لن أهتم كثيراً بتفاصيلها الداخلية، فهناك آخرون في هذه الندوة سيهتمون بها، في هذه الرواية سأهتم بتغيرات فارس زرزور نفسه في نوسانه ما بين الزرزور قبل طاووسية الجيش، وما بين الفارس ضابطاً صغيراً في الجيش، وما بين العودة إلى الزرزور بعد تسريحه من الجيش، ثم بحثه عن الفارس فيه وفي الزرازير من أمثاله، أي بين بسطاء الناس والغريب أن فارس كان يعيش مع حميه ويسمع حكايته ومغامراته، ولكنه أبداً لم يستطع أن يقرأ فيها الغريب والعجيب والمغري بالكتابة، ولكنه بعد وضع كتابه معارك الحرية في سورية وزوال حاجز تميز الدكنجي عن الفلاحين منه،

وسقوط حاجز المعلم عن الشوايا منه، واكتشافه البطولي والشجاع والمغامر فيهم.. تمَّ وضع هذا الكتاب.

عند وضعه كتاب معارك الحرية واستماعه إلى إعجابات القراء فيه استيقظ الكاتب الروائي الذي لم يكنه فيه بعد، ليكتشف أن بين يديه كنزاً جاهزاً ما عليه إلا أن ينفخ عنه الغبار ليتجلى في روايته الجميلة "حسن جبل". أنا أعتقد وكل ما أقول الآن تخمين روائي أن فارس زرزور سمع حكاية عمه مجزأة ومفصلة عشرات المرات سمعها من عمه، وسمعها من زوجه، وسمعها من حماته، وسمعها من جيرانه حتى فقدت لكثرة تكرارها طرافتها.

ولكنه.. فجأة وبعد اختمار المادة الفكرية في ذهنه، لقد مرت عدة سنوات على نشره كتابه معارك الحرية في سورية، وصارت المادة الموضوعة فيه جزءاً من ذاكرته الحية، صار اختمار المادة العاطفية المروية عدة مرات أمامه مغروساً في تضاعيف ذاكرته.. عند تلك اللحظة قرر أن يكتب روايته الأولى، وأنا أعتقد أنه حين كتبها لم يعان مخاض ولادة نص يُصنع أثناء الكتابة، بل كتبه كمن كان يكتب ما يملى عليه، وأنا أعرف هذه الحالة لكاتب عانى المعاناة نفسها. ربما.. كتب الرواية أكثر من مرة، ولكن هذه الأكثر لم تكن سعياً وراء البنية الدرامية للنص. بل كانت سعياً وراء الجمالي والفني والمعماري.

في العام 1969 حدث انفجار حقيقي في مسيرة فارس زرزور الأدبية، فهذا الذي لم يصدر إلا مجموعة قصصية واحدة هي "حتى القطرة الأخيرة" في العام 1961 في رأي عبد الرحمن الحلبي وفي العام 1960 في رأي آخر (دليل اتحاد الكتاب)، ثم أصدر كتابه "معارك

الحرية في سورية" في العام 1962، ثم توقف عن النشر تماماً حتى العام 1969 فإذا به يصدر في عام واحد مجموعة "42 راكباً ونصف" القصصية، ثم رواية "حسن جبل"، ثم رواية "لن تسقط المدينة"، ويكون من الكسل بحيث لا نعرف منه تاريخ سنوات كتابتها ما عدا رواية "حسن جبل" التي يعلن في خاتمتها أنها كتبت في العام 1966 وإذا ما رأينا أن رواية "المذنبون" التي صدرت في العام 1974 وكانت مذيلة بتاريخ كتابتها وهو العام 1965، فلا يتبقى أمامنا إلا إشكالية متى كتب رواية "لن تسقط المدينة" فهل كتبها قبل "حسن جبل" أم بعدها؟

إن قراءة الروايتين وأحداثهما تشي أن "لن تسقط المدينة" كتبت قبل "حسن جبل"، فهي تتحدث عن دخول اللنبي ولورنس وفيصل إلى دمشق منهين الدولة العثمانية في الشام، هذا عن الإطار العام، أما أحداث "حسن جبل"، فهي تبدأ من سجناء سوريين لدى المحتل الفرنسي أثناء معارك الثورة السورية في حوران وجبل العرب، هذا عن الزمن الداخلي للروايتين، وطبعاً هذا ليس دليلاً ولكن النضج المعماري، ودفء الشخصيات في "حسن جبل" توحي أن الكاتب قد تمرس بعد كتابة روايتين وإن لم تنشرا، هما: "المذنبون"، و"لن تسقط المدينة"، وفي القراءة النقدية للروايات الثلاث سنشعر بفارق فني حقيقي إن على المستوى اللغوي، أو على مستوى حسن استخدام الوثيقة والمرجعية التاريخية، أم على مستوى بناء الشخصيات لصالح "حسن جبل".

وريما يقوي رأينا هذا ما كتبه قاص معاصر كان واعداً ولكنه توقف عن الإبداع بعد مجموعة قصصية واحدة هو بديع بغدادي على الغلاف الأخير لرواية "لن تسقط المدينة"؛ كتب بغدادي: وكان عليها (رواية "لن تسقط المدينة") أن تمر بمخاض أكثر إيلاماً، ذلك أن الأب يرى ابنه (الرواية) يتجمد في قوالب الأدراج عاجزاً عن أن يرى النور ويتعمد بحبر المطابع عماده الحقيقي، وآن بعد انتظار ممض طويل أن يستقبل القارئ العربي هذا العمل الروائي الجديد.

ما يهمنا من كل ما قدمنا هو أن البحث الذي اشتغل عليه فارس زرزور وهو كتاب "معارك الحرية في سورية" كان له الفضل الأكبر في الوصل ما بين فارس وعالم البلد الحقيقي، عالم البسطاء، عالم المهمشين، عالم الفلاحين الموسميين، عالم عُمّال فقدوا أعمالهم، عالم كل أولئك الذين تحولوا إلى وقود للثورة، ثم حين باخت الثورة انكفأوا على أنفسهم يبحثون عن وسيلة للعيش، وعن هوية جديدة بعد هوية الثوري ومحاول الإمساك بقرن التاريخ ليخضعه.

في نوسان فارس زرزور الذي استمر إبداعياً ما يقارب الثلاثين عاماً منذ أوائل الستينيات وحتى التسعينيات، كان فارس يحاول قهر الزرزور ليعلي الفارس الذي يستحق أن يسمى به، وفي رأيي أن فارس زرزور، وهو كاتب مؤسس حقيقي، وكاتب مبدع كبير استطاع التغلب على كل المعيقات المحيطة به، وعلى كل الإحباطات الفردية والجمعية التي أحاطت به، فكان واحداً من أهم كتّاب العربية، وواحداً من أهم كتاب سورية، وإن كان سوء حظ الوطن أن الوطن لم ينتبه إليه بما يكفي في حياته فمضى. ولكنا نحن العارفين بفضله نعلن أنه كان

فارساً حقيقياً من فرسان الكلمة، ورغم النكتة السوداء التي كان يحيط بها بؤسه إلا أنه كان يعرف، وكنا نعرف أنه الفارس والفارس فقط في فن الرواية.

ألقيت هذه المحاضرة في المكتبة الوطنية في دمشق، في حفل تأبين الروائي فارس زرزور ...

يتجول خيري الذهبي، صانع الحكايات الأخاذة هذه المرة في بساتين الفكر و التاريخ والثقافات الأخرى ، البعيدة منها والقريبة، فاتحا باب مختبره الروائي على أوسع أبوابه ،ذلك المختبر الذي تطبخ فيه أساطير بلاد الشام برفقة تاريخ الانسانية و الحكايات الشفوية ومرويات البسطاء وكوابيس الحالمين و الجغرافيا المتأرجحةِ للساسة عبر العصور، جنبا الى جنب مع ذخيرة مثيرة جدا من درر الأدب العالمي عبر اختيارات متأنية و منسقة ضمن أنساق تقودنا إلى فهم آليات عمله في إنتاج ذلك المخلوق العجيب المسمى رواية .

يضع من محاضرات ألقاها حول العالم ، تتناثر فيها أفكار كبرى و معالجات منها ما أنجز ومنها ما لم ينجز في أعمال روائية ضخمة تنتظر من ينجزها ، و لكنها خلاصات لتلاقح حضارات وأفكار و قيم تميز كتبه ورواياته و مشاريع روائية مستقبلية يقترحها على القارئ .
بدوره يقوم الذهبي بطرق أبواب لم تقرب من قبل، لا بل يغامر بالقيام بمزاوجات غرائبية ومقارنات مدهشة تفضي الى نتائج يجب أن تدرس باهتمام وعناية شديدين ، مزاوجات بين الشرق والغرب ، بين التاريخ المكتوب والشفهي ، بين المنطوق والمكتوب ..

محاضرات في البحث عن رواية، كتاب مثل الكرم على الدرب، ينبغي على كل راغب في التقاط بذور روائية ذكية أن يقرأه .